خَالد محمّد خَالد

# أبناء الرسول
## فى كربلاء

المؤسسة
للنشر والتوزيع

جمادى الآخر ١٤٢٥هـ - يوليو ٢٠٠٤م

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الناشر

**دار المقطم للنشر والتوزيع**

٥٠ شارع الشيخ ريحان - عابدين - القاهرة

تليفون: ٧٩٥٨٢١٥ - ٧٩٤٦١٠٩

فاكس: ٥٠٨٢٢٣٣

**email: elmokatam@hotmail.com**

بسم الله الرحمن الرحيم

# مقدمـــة

من الصعب أن نجد في تـاريخ البشرية كلـه، يومـا كذلـك اليـوم الفريد والمجيد.. وأبطالا، كأولئك الأبطال الشاهقين والباهرين..!! إذ لم يكن الأمر في ذلك اليوم، أمر شهداء برزوا لمنايـاهم فـي استبسـال وغبطة..

ولا أمر جيش، خرج لجيش مثله، فأبلى وأحسن البلاء..

إنما الأمر الذي شغل الدنيا في يوم كربلاء، هـو أنـه اليـوم الـذى تجلت فيه قداسة الحق، وشرف التضحية على نحو متميز وفريد..!!

وصحيح أن تاريخ الإسلام مترع بالمشاهد الزاخـرة بقداسـة الحـق وشرف التضحية، أيام الرسول صلى الله عليه وسلم، وفيمـا تـلا عصـره الرائد العظيم من عهود وعصور.. بيد أن يوم كربـلاء، تبقـي لـه سـمته المجيدة، وميزته الفريدة.

فالقضية الجليلة التي دار مـن أجلـها الصـراع.. والقلـة الصـامدة الماجدة، التي وهبت حياتها لتلك القضية..

والطريقة التي دار بها القتال بين أربعة آلاف فارس مـن جيـش ابـن زياد ، واثنين وسبعين لا غير.. هم أنصار "الإمام الحسين" ..

والأحداث المروعة، التي سبقت ذلك اليوم..

والحصاد الأليم، والعظيم الذى خلفه، بعد أن مالت شمسه للغروب..

كل ذلك يجعل من يوم كربلاء يوما فريدا في تاريخ الآلام والبطولات.. في تاريخ التضحية والمجد.. في تاريخ المأساة والعظمة..

وفي تاريخ الحق الذي شهد في ذلك اليوم ـ ورغم هزيمة أبطاله ـ سيادة وانتصارا قرت بهما عيناه..!!

إن أعظم ما صنع "الحسين" وأهله وصحبه في ذلك اليوم هو أنهم جعلوا الحق قيمة ذاته، ومثوبة نفسه فلم يعد النصر "مزية" له.. ولم تعد الهزيمة "إزراء" به..!!

لقد وقف اثنان وسبعون بطلا، وراء قائدهم العظيم "أبى عبد الله الحسين" ليس لهم في إحراز النصر على عدوهم أدنى أمل..

وليس أمامهم سوى القتل بأسلحة خصم فاجر، متوحش، مسعور.. وأمامهم فرص النجاة؛ إذا هم أرادوها لكنهم رفضوا النجاة مادامت ستكون غمطا لقداسة الحق، وثلما لشرف التضحية..!!

وهكذا راحوا يقاتلون حول قائدهم الممجد، معانقين المنايا، واحدا بعد واحد.. وهم يصيحون، بل يغنون:

الله، والجنة.. الله، والجنة..!!

من أجل ذلك، يرفض هذا الكتاب الوقوف عند اعتبار "كربلاء" مأساة وفاجعة، ومناسبة للبكاء والعويل..

ويمد بصره نحو مضمونها الصحيح، وجوهرها النضير، فيراها مهرجانا للحق وعيدا للتضحية، ليس لهما نظير..!!

إنه يوم لم يعرف المسلمون بعد، حقه عليهم، ولا واجبهم تلقاءه،

وإن الأقدار لم تدع رءوس أبناء الرسول ﷺ تحمل علـى أسـنة رمـاح قاتليهم؛ إلا لتكون "مشاعل" علـى طريـق الأبـد.. للمسـلمين خاصـة، وللبشرية الراشدة كافة، يتعلمون في ضوئها الباهر: أن الحق وحده هـو المقدس.. وأن التضحية وحدها هي الشرف.. وأن الولاء المطلق للحق والتضحية العادلة في سبيله، هما وحدهمـا اللـذان يجعـلان للإنسـان والحياة قيمة ومعنى ..!!!

فهل يأذن حفيد الرسول ﷺ وأبو الأبطال، أن أقدم عنه وعـن رفاقـه الأبرار هذه الصفحات..!!

إني لأجاوز قدرى، إذا زعمت أو توهمت أننـى قـادر علـى إيفـاء تضحياتهم وعظمتهم حقها..

لقد وجدت ـ لا غير ـ عبير تلك التضحيات وتلك العظمـة؛ فرحـت أنادى الناس كى يستمتعوا معى بهذا العبير..!!

وليشهدوا ـ كما لم يشهدوا مـن قبـل ـ شـرف التضحيـة ، وعزمـها القدير..!!

ويا أبا عبد الله

سلام على البيت الذي أنجبك.. وعلى الدين الذى رباك..

وسلام على رفاقك الأبطال الممجدين، والشهداء الظافرين.

خالد محمد خالد

## الفصل الأول

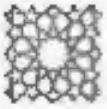

# للتضحيـــــــة خلقـــــــوا ..

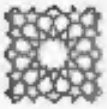

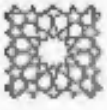

كانت أحب أهلها إلى أبيها، وأقربهم من قلبه الودود وكان ﷺ يشم فيها عبير ذكريات عزيزة وغالية.

ذكريات السنوات الجليلة التي قضاها في صحبة أمها "خديجة"..

كما كان يهلل غبطة ورضا، وهو يرى فيها أم ذريته المباركة وسبطه العظيم..

إنها "فاطمة"..

بورك الاسم، وبوركت صاحبته!!

وقد ذهبت يوما إلى أبيها الرسول ﷺ تسأله أن يدبر لها خادما يعينها على عمل البيت الذي أدمل يديها، وأضنى عافيتها، ومسها من اللغوب.

وكان زوجها العظيم "علي بن أبي طالب" رضي الله عنه هو الذي نصحها بهذا حين علم بمقدم بعض السبي إلى المدينة، وحين رآها تكاد تسقط إعياء تحت وطأة العمل الدائب في خدمة البيت والأولاد.

وفي دار النبوة - وما كانت دار النبوة تلك سوى حجرة متواضعة في ناحية من المسجد - استقبلها الأب والرسول صلى الله عليه وسلم!

- مرحبا، يا فاطمة.

وجلست "فاطمة" تتحدث مع أبيها، وبين الحين والحين تحاول الاستنجاد بشجاعتها كي تنقى بين يديه الرغبة التي حفزتها إلى المجيء.

لكن الحياء يغلب فيها الشجاعة؛ فتكظم الرغبة ولا تبوح.

ثم تسمر في حديث آخر أشبه ما يكون بالنجوى مع أكرم والد، وأكرم رسول ﷺ!!

وأخيرا تستأذن في العودة إلى دارها، فيأذن لها أبوها الرسول صلى الله عليه وسلم، ويودعها بنظرات مشفقة، وحانية.

ويسألها الزوج وقد عادت إليه:

- ماذا قال لك رسول الله ﷺ؟

وتجيبه "فاطمة":

- لقد استحييت أن أسأله!!

لكن "عليا" يعلم ما تنوء به من أعباء، فيصحبها من فوره إلى الرسول عليه وعلى آله الصلاة والسلام، حيث ينهى إليه رغبتها وحاجتها.

ويرنو بصر "النبي" ﷺ إلى بعيد.. ويلمع وجهه المضيء تحت علالة شفافة من الشجن، والأسى، والحنان..

إنه ليعرف - مثلما نعرف - ما تعانيه ابنه الحبيبة من مشقة وشظف، وهي التي ولدت في أحضان نعيم حزل كانت تدخر به دار أمها "خديجة" ذات المجد الوارف والثراء المفيض !!

لكنها اليوم ابنة "رسول" جاء الحياة ليعطي، لا ليأخذ..

رسول قرر أن يكون حظه وحظ أهله من الدنيا كزاد الراكب، بل

دون زاد الراكب يكثير..!!

وإن "فاطمه الزهراء" رضى الله عنها لتعلم هذا المنهج وتلتزمه.

ولقد رضيت ـ قريرة العين ـ أن يكون كل جهازها الذى رفت به ليلة عرسها أعوادًا من جريد صنع منها سرير واطئ، ووسادة حشوها ليف.. وسقاءين للماء.. ورحى مين للطحن.. وفارورتى طيب.. ومنخلا.. ومنشفة.. وقدحا..!

وهي إذ تجيء أبيها اليوم على استحياء، فى صحبة زوجها الفقير من عرض الدنيا ورغد العيش، فإنها لا تطلب ما تنأى بها عن منهج الرسول ﷺ فى الزهد وفى الورع.. إنها لا تريد أكثر من خادم يحمل عنها بعض العبء الذى يثقل كاهلها..!

ولكن، لا فمادامت الأقدار قد أسعدتها وشرفتها بأن تكون "بنت الرسول ﷺ" فإنها فى نفس الوقت، ولنفس السبب، تدعوها لأن تتحمل من التضحيه أقصى ما يستطيع الناس

ويحتمل معها ذلك القدر وأكثر، زوجها وبنوها..!!

وإن مشقة البيت، وشظف العيش لأهون من تلك الصحاب التي سيقدر لآل هذا البيت أن يحملوها..!!

من أجل هذا، لم يجد الرسول ﷺ في وسعه أن يجيب "فاطمة وعليا" إلى رغبتهما المتواضعة والمشروعة.

ومن ثم غطى وجه ابنته الحبيبة بنظراته الآسية والحانية، وقال يخاطبها:

"لا يا فاطمة.. لا أعطيك، وأدع فقراء المسلمين!!"

ثم اقترب منهما، وطوقهما بذراعيه، وقال لهما، وعلى فمه ابتسامة

كضوء الفجر:

"ألا أدلكما على خير من خادم..؟

إذا أويتما إلى مضجعكما، فسبحا الله ثلاثاً وثلاثين.. واحمداه ثلاثاً وثلاثين. وكبراه أربعاً وثلاثين.. فذلك خير لكما من خادم"..!!

إذا نحن جاورنا شكل هذه الواقعة إلى جوهرها، أدركنا المعنى العظيم لها، وأدركنا كذلك، الدور المجيد والوحيد الذي كان على أهل بيت النبي ﷺ أن يقوموا به عبر مسطرين "حراء" ولا متعلمين براحة..!!!

وإذا كنت هذه الواقعة نريا كيف كان الرسول ﷺ يزكي هذا المبدأ في أفئدة آل بيته فإنها لم تكن الواقعة الوحيدة في هذا المجال.. بل هي واحدة من وقائع كُثُرٍ كان الرسول عليه الصلاة والسلام يصوغ منها أسلوبه في إعداد أهل بيته لدورهم العظيم، هذا الدور الذي سنكون التضحية لحمته وسُداه.

ففي يوم آخر.. وكان يوم فتح مكة ذهب "علي" رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ يسأله أن يمنحه حجابة البيت الحرام.

وكانت الحجابة وظيفة تتوارثها من قديم إحدى عائلات قريش.

ولم يكن ابن عم الرسول ﷺ حين تمناها، يطمح إلى مغنم أو عرض من أعراض الدنيا الزائلة.

إنما كان يرجو أن يذهب بشرف حمل مفاتيح بيت الله الحرام.

هنالك تقدم من الرسول ﷺ الذي كان جالساً وسط أصحابه، تقدم ومفاتيح المسجد والكعبة في يمينه وقال:

"يا رسول الله !! اجعل لـ الحجابة مع السقايه، صلى الله عليك"

وابتسم الرسول ﷺ ابتسامته العذبه المعهوده في مثل هذه المواقف، ويسط يمينه المباركة نحو ابن عمه، خذا منه المفاتيح، ثم نادى، ويصره يجول بين الناس:

"أين عثمان ابن طلحة"..؟؟

وكان "عثمان بن طلحة" هو القائم يومها بوظيفة الحجابة هذه.. ونهض "ابن طلحة" قائما، بسبب نداء رسول الله ﷺ وألقى الرسول بالمفاتيح إليه، وقال:

"هاك مفتاحك يا عثمان.. اليوم يوم بر ووفاء"

ثم التفت إلى ابن عمه "علي" وقال:

"إنما أعطيكم ما تُرزأون، لا ما ترزأون"..!!

ياله من درس.. ويالها من نبوءة..!!

أجل . هذا دور آل محمد ﷺ في الحياه.. التضحيه بكل ما نطلبه من شظف، وتبتل، واستغناء..

لا شيء دون التضحية، ولا شيء سواها..

أما الدنيا بكل زينتها وزخرفها وإغرائها، فهي أهون على الله من أن يجعلها لهم مثوبة وأجرا..!!

إن عليهم في هذه الحياة أن يقوموا بدور واحد. عليهم أن يقضوا أعمارهم كلها فوق "منصه الأستاذية" ليعلموا الناس فنا واحداً.. هو فن التضحية والفداء، أروع وأصدق ما تكون التضحية، ويكون الفداء..!!!

على هذا النسق الرفيع الباهر ربى الرسول الكريم ﷺ "عليا وفاطمة" الأبوين الذين سيجيء من أصلابهما، الحسن والحسين، وزينب، وبقية الأبناء والحفدة المباركين، الذين ستطالع على صفحات هذا الكتاب جلال ما بذلوا من تضحية.. وروعة ما صنعوا من بطولة..!!

لقد رباهما كما رأينا على التحمل والتضحية.. وصحبح أنه ربى جميع أصحابه على ذلك.. بيد أنه كان يطالب ذويه وأهل بيته بأن يبلغوا في هذا المجال أرفع مستويات التفوق والنوع.

فالقدوة التي يجب على "فاطمة" أن تعطيها الآخرين بوصفها بنت رسول الله ﷺ..

والقدوة التي يجب على "علي" أن يمنحها الآخرين بوصفه ابن عم الرسول ﷺ، وتلميذه الأول، وزوج ابنته، ووالد أحفاده.

هذه القدوة المنتظرة منهما تختلف في نوعها وفي درجتها. وتتفوق في نوعها، وفي درجتها..

ولئن كانت القدوة في عرف البشر "تجسيدا" للمثل العليا التي أبدعها الإنسان واكتشفها؛ فإنها كما علم الرسول ﷺ آل بيته وأصحابه "تجسيد" للربانية التي يريدها الله.!!

وها هو ذا القرءان العظيم يهتف فيهم:

﴿كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون﴾

فالربانية وحدها، هي التي تضفي على العظمة الإنسانية رواء الصدق، والإخلاص، والنسك..

وهي التي تجعل من الصحبات رشدا ورضوانا.

ولقد كانت القدوة التي تركها "علي وفاطمة" والتي سيتركها

"بنوهما" من بعدهما رائعة الاتساق مع هذه العايه الفريدة، وذلك المستوى البعيد.

لقد كرسوا حيانهم للحق، أعظم ما يكون التكريس. وضحوا في سبيله، أصدق ما تكون التضحية.

وإذا كان أكثر ما يحبن الناس عن التضحية، هو حب المال وحب الحياة.. فإن آل بيت الرسول ﷺ.. هؤلاء البررة الأطهار، قد عرفوا كيف يستهينون بالمال، ويستهينون بالحياة..!!

لقد رأينا، كيف كان "على وفاطمة" وأبناؤهما" يعيشون في خصاصة وشظف.

ألا فلنعلم أن هذه الخصاصة لم تكن عليهم ضربة لازب.. بل كانت من صنع أيديهم واختيارهم.

فنصيب "على" من الفيء ومن الغنائم كان عظيما. لكنه ما كان يبقى عليه، ولا يدخر منه.

إنما كان يأخذ منه مثل حسو الطائر.. ثم يهب بقيته في سماح وغبطة مسكينا، ويتيما، وأسيرا...!!

ولطالما كان يعمد إلى الطعام المقل الذى يحتاجه لغدائهما طفلاه "الحسن والحسين" فيصدق به على شيخ هرم، أو أرملة، أو يتيم.

وستكون هذه طريقه أولاده وشيمتهم حين يكبرون..

فبعد قليل، سنرى "الحسن" وقد كثر راتبه وعطاؤه، أيام "معاوية" يقاسم الله أمواله..!! وكذلك سنرى "الحسين".. سنراهما ينفقان عطاءهما في سبيل الخير، في سخاوة نفس نادرة المثال.

فإذا دُعُوا إلى التضحيـة بالحيـاه بعـد التضحيـة بالمـال، جـادوا بأنفسهم، وباعوها صفقة رابحه وغالية ومتواضعة لله رب العالمين..!!

إنهم للتضحية خلقوا.. وللفداء عاشوا..

ولقد يخدعنا الفهم الزائغ لموقفين وقفهما "علـي وفاطمـه" فـنرى فيهما جنوحـ عن المبدأ العظيم الذي قامت عليه حـ بهما

هذان الموقفان هما:

ـ موقف "السيده فاطمه" من حقها في ميراث النبي ﷺ

ـ وموقف "الإمام علي" من بيعة الصديق أبي بكر

إن النظرة السريعة المتعجلة لهذين الموقفين، توقع أصحابهما فـي وهم كبير، فيحسبونها عرضا من أعراض التطلع إلـى الدنيـا والحفـاوة بها.

فأما عن الموقف الأول، فلم يكن لدى النبي ﷺ ما يورث.

لقد كان يمضي الشهر والشهران والثلاثه، مـا يوقـد فـي بيتـه نـار تطهو طعاما..!!

ولقد لقي ربه، ودرعه مرهونة في حفنات شعير..!!

كل ما في الأمر، أن المسلمين في بعض غزواتهم أصابوا أرضا

أمر رسول الله ﷺ أن تبقى في أيدي أصحابها. على أن ينال كل ذي حق فيها نصيبه من ريعها.

وأفاء الله على رسوله من تلك الأرض ـ فـي خيبر، وفـدك ـ قطعـة صغيره كان يُحمل ريعها إلى الرسول ﷺ فيستعين به على معيشـة بيتـه وأهله، وأبناء السبيل.

ولما انتقل عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى، حول خليفته الصديق ذلك الريع إلى بيت مال المسلمين.

وطالبت به السيدة فاطمة بوصفها وارثة أبيها، وغاضبت الخليفة من أجل صنيعه ذاك..

بيد أنها لم تكد تعلم من أبي بكر، ومن غير أبي بكر من الأصحاب أن رسول الله ﷺ كان قد أعلن في حياته أن الأنبياء لا يورثون، حتى فاءت إلى حكم الشرع وأذعنت لقرار الرسول ﷺ، وتقبلت في رضا وتسليم حرمانها من ذلك الريع الذي كانت في أشد الحاجة إليه.

وهكذا أضافت إلى تضحياتها تضحية جديدة، وفاء منها وولاء للحق الذي قامت عليه حياتها..!!

وأما موقف "الإمام علي" من بيعة "الصديق أبي بكر" رضي الله عنهما، فما كان امتناعه عن البيعة أول أمرها تحديا منه للمبادئ التي قامت عليها حياته الورعة، ولا نكوصا عن التضحية من أجلها

بل كان في التحليل النهائي له، صورة صادقة لاستقامة النهج في ضمير "الإمام" وسلوكه.!!

لقد كان على اقتناع وطيد بأن خير الإسلام في أن يظل لواؤه بيد واحد من بيت النبوة، لا سيما في الفترة التالية لوفاة الرسول ﷺ حيث يخشى أن تتحرك النزعات القبلية في أحشاء المجتمع من جديد، متخذة من منصب الخلافة مجال تنافسها - الأمر الذي حدث فعلا يوم السقيفة، إذ رأى بعض زعماء الأنصار أنهم أولى بالخلافة. ورأى المهاجرون أنهم أحق بها وأجدر. وكاد الخلاف يتفاقم لولا أن بسط

الله يده فوق عباده، ويحرك الصمير الديني الرشيد الذي غرسه الرسول ﷺ في أفئدة أصحابه، فدب الخلاف فور نشوئه في حرارة الإيمان وصدق اليقين..!!

ولم يكن "علي" في اقتناعه بأولوية نسب النبوة في الخلافة يبتغي لآل البيت امتيازاً خاصاً.

بل كان يرى ذلك امتداداً لواجبهم نحو الدين الذي أكرمهم الله به.

من أجل ذلك، نراه يجعل هذه الأولوية مشروطة بأن يكون في آل البيت من يؤهله صلاحه وورعه واقتداره لحمل تبعات المنصب الجليل.

ولقد صور اقتناعه هذا في وضوح كامل من خلال حواره مع الراشدين "أبي بكر و عمر" فقال:

"إنكم تدفعون آل محمد ﷺ عن مقامه ومقدمهم في الناس، وتُنكرون عليهم حقهم..

أما والله، لنحن أحق بالأمر؛ مادام فينا القارئ لكتاب الله.. الفقيه في دين الله..

العالم بسنن رسول الله ﷺ.. المضطلع بأمر الرعية.. القاسم بينهم بالسوية..

وفي كيانه للصدّيق حين وقف فيما بعد يبايعه

"يا أبا بكر..

إنه لم يمنعنا من أن نبايعك إنكارٌ لفضلك، ولا نفاسةٌ عليك لخير

ساقه الله إليك.. إنما كنا نرى أن لنا في هذا الأمر حقا أخذتموه"[١]

على أنه ـ كرّم الله وجهه ـ سرعان ما انضمّ لإجماع الصحابة وبايع "الصدّيق" بيعة صدق ويقين.

وسرعان ما أثبت "الصدّيق" ومن بعده "الفاروق" أنهما خير خلف، لأكرم سلف..

ووقف "عليّ" مع كلا الخليفتين يبثّهما الرأي السديد، والنُّصح الأمين "مما جعل أمير المؤمنين "عمر" يُشيد بسداد رأيه فيقول!

"لولا عليٌّ، لهلك عمر"..!!

هو إذن لم يكن ينشد الخلافة لذات نفسها، ولو أرادها لذلك لطالتها في يُسرٍ يداه. فلطالما حثّه أبو سفيان يومئذ، بل حرّضه إثر مبايعة الناس أبا بكر على أن يتشبث بحقه في الخلافة، قائلا له: إن شئت لأملأنّها عليهم خيلاً ورجلاً، ولأسُدّنّها عليهم من أقطارها..

فما كان جواب الإمام العظيم إلا أن قال له:

"يا أبا حنظلة!! إنك تدعونا لأمر ليس من أخلاقنا، ولا من شيمنا. ولقد سدّدتُ دونها بابًا، وطويتُ عنها كشحًا" !!

ولقد جاءته الخلافة فيما بعد، فماذا كانت له. وماذا كان لها..؟؟

أما هي، فكانت له عبئًا فادحًا، ورزءًا رهيبًا.

وأما هو؛ فكان لها المؤمن الذي لا يصرفه عن مسئوليات إيمانه شيء، والفدائيّ الذي لا يصرفه عن حب التضحية رغبة. ولا تُجفله رهبة. !! لقد كان قادرًا ـ لو أراد ـ أن يطوي بيمينه مائة حاكم من أمثال معاوية.. وأن يطوي بيمينه مائة شام، لا شاما واحدة. !!

---

[١] راجع كتابنا "خلفاء الرسول"

أجل، بقليل من الدهاء، وقليل من المسايرة، كان قادرًا على دَحْض التمرد كله.

لكنَّ صرامته في احترام مبادئه وتطبيقها جعلته يؤثرُ المركب الصعب دومًا.

كان مؤمنًا بأن الحق يجب أن يمضي في طريقه دون مُراوغة، أو مُسايرة، أو دهاء.

وحين أشاروا عليه أن يسبقي معاوية بعض الوقت والنا على اشلام ريثما نقرُ وتهدأ الفتنة، صاح في مشيريه قائلاً:

"أتأمرونني أن أطلب النصر بالجور .؟ لا والله، لن يراني الله مُتَّخذ المُضلِّين عَضُدًا"..!!

هذا، هو الرجل الذي ربَّى الحسين، والحسن" اللذين حاصا معه، وخاضا من بعده معارك الحق، في سبيل أن يبقى الدين دينًا..

هذا هو الأب الذي أنجب أبطال كربلاء، الذين سنرى الآن من بُطولتهم عجبًا..

وهذا هو بيت آل النبي ﷺ .. بيت القرابين والشهداء!!

لقد نزل الوحي يومًا بهذه الآية الكريمة:

﴿إنما يريدُ الله ليذهب عنكمُ الرجسَ أهل البيت، ويُطهِّركم تطهيرًا﴾ ومن فوره، دعا الرسول ﷺ إليه "عليًّ وفاطمه، والحسن، والحسين".

حيث دثَّرهم بردائه، وضمَّهم بحنانه، وراح يقول في حبور عظيم: "هؤلاء أهل بيتي"..

أفكانت الدنيا بكل إغرائها وبريقها وغرورها، هي الرِّجس الذي

أذهبه الله عن آل هذا البيت الكريـم، فحال بينهم وبينها بحارٍ من دمائهم الزكية، وجبال من تضحياتهم الشامخة المبنية..؟؟!

الفصل الثاني

# النبـــــــوة لا المـــــــلك ..

. والآن نقترب من جوهر القصية التى بدر "الإمام على" لها حياته حتى قضى فى سبيلها شهيداً.

والتى وهبها الحياة كذلك، أبناؤه من بعده، حتى قضوا فى سبيلها شُهداء، لا سيما ذلك البطل الممجّد الشهيد "أبو عبد الله الحسين بن على"..

لقد كشف تمرد معاوية، ورفضه مبايعة "الإمام على" عن جوهر النضال الذى تحتّم على الإمام أن ينهض بأعبائه.

وكان السؤال الذى يفرض نفسه يومئذ على المجتمع الإسلامى كله، هو ذا:

ـ لمن يجب أن تكون الغلبة ويكون البقاء..؟

للنبوة بكل هَدْيها، وورعها، وجلالها الذى سوّاه فى أحسن تقويم وَحْىُ الله ومنهج رسوله ﷺ..

أم للمُلك بكل مباذخه ومبادله وتسلطه الذى باتت ترهص به على نطاق واسع أطماع الأمويين..؟؟

لقد كان أخشى ما يخشاهُ "الإمام" أن تقوم فى الإسلام ـ دولة الطُلقاء..!!

والطُّلقاءُ، هم أولئك الذين أسلموا يوم فتح مكة راغبين أو راهبين وبعض هؤلاء، حَسُن إسلامه وصفا يقينه..

وبعضهم بقي تحت جوانحه إلى الجاهلية حنين.

وكانت الدولة المسلمة يومذاك، وبعد أن فحت الذئب لها وعليها بحاجة ماسة إلى حاكم من ذلك الطراز الربَّاني.. بحاجة إلى واحد من أولئك الرجال الذين يمثلون فضائل أيام الوحي وعصر النبوة..

ولم يكن "الإمام علي" يومئذ الرجل الأفضل والأمثل فحسب، بل كان الرجل الأوحد الذي تتمثل فيه وتهيب به كل حاجات دينه وأمته.

وكان الخروج عليه يومذاك يشكل خروجًا أكيدًا على عصر النبوة بكل ما يمثله من هُدى وعدالة ونور.

ولقد كانت بصيرة الإمام من النفاذ والصدق بحيث أبصرت أبعاد المصير إذا استقرَّ السلطان في أيدي الأمويين فلقد يهون الأمر، لو بدأ الحكوص بمعاوية، وانتهى به.. غير أن "الإمام" كان يرى ببصيرته الصادقة أن الانحراف إذا بدأ، فلن يُؤذن بانتهاء..

وكان يرى أن الأمويين إذا أفلحوا في تثبيت ملكهم المشؤوم، فسيتحول التراث الجليل الذي تركه الرسول ﷺ إلى ملك عضوض ودنيا جامحة..

ومن ثمّ صار دَحْض هذه المحاولة التعسة واجب المؤمنين كافَّة.

وهذه كلمات أبي سفيان التي يجرّ بها نوايا أسرته وقومه، لا تدع مجالاً للشك في أطماعهم وما يبتغون..

فهو يوصي أهله وذويه قائلاً: "لقد صار الأمر إليكم فلا تدعوه يُفلت، وتلقَّفوه كالكُرة. فإنما هو الملك ولا أدري ما جنَّة ولا نار"..!!

وهو يمرّ بقبر "حمزة" عم الرسول ﷺ فيستعيد ذكرى الأيام الماضية ويقول: يا أبا عمارة إن الأمر الذى اجتدنا عليه بالسيوف قد صار إلى غلمان بنى أمية"..!!

وهو حتى من قديم، لم يكن يرى فى الإسلام إلا مُلكًا . فيوم فتح مكة، وقد صحبه العباس عم النبى ﷺ إلى الرسول ليُسلم، وينحو بحياته، نظر إلى الكتائب اللُّجبة العارمة تحمل رايات الإسلام، فإذا به ينظر إلى "العباس" ويقول "لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيمًا"..

فيجيبه "العباس" رضى الله عنه:

"يا أبا سفيان.. إنها النبوة، لا الملك"..

أجل.. هذا هو الفارق الكبير بين تفكير بنى هاشم وتفكير بنى أمية. فبنو هاشم يرون الدين على حقيقته. نُبوّة، وهُدى، نورا..

وبنو أمية يرونه من خلال أمانيّهم وأطماعهم مُلكًا، وتسلُّطًا، وسيادة..!!

وإن "الإمام عليًا" لم يُخدع إذن عن جوهر الموقف الذى اتخذه معاوية حين رفض بيعة الإمام، ولم يُخدع عن عواقب هذا الموقف إذا تركه المسلمون يستشرى ويتفاقم.

وإذا كانت مقاومة هذا الجنوح الخطير واجب المؤمنين.. فمَن أولى المؤمنين بهذا..؟

إنهم آل بيت النبى ﷺ.. أهل التقوى، وأهل النصحية..!!

وهكذا شرع موكب النصحاء فى مسيره عالية، كلها قمم ومُرتفعات.. مُسهلاً بأشرف تلكم القمم وأعلاها.. حياة الإمام الرشيد الشهيد "على بن أبى طالب" رضى الله عنه وأرضاه..

ثم بحياة الشهيد الممجّد والعظيم "أبي عبد الله الحسين بن علي" ومعه عشرات من إخوانه، وأهل بيته وصحبه، في يوم يجعل الوِلْدان شيبًا..!!

* * *

وهكذا، لم تكن "كربلاء" مَلْحمة ذات فصل واحد، بدأ وانتهى يوم العاشر من المحرم.

بل كانت ذات فصول كثيرة بدأت قبل كربلاء بسنوات طوال. واستمرت بعد كربلاء دهرًا طويلا..!!

أجَل.. لقد بدأت ملحمة كربلاء ومأساتها، يوم تمّت خُدعة التحكيم، وحين وقع التمرد الرهيب والفتنه في صفوف أتباع الإمام، ثم حين خلا الجوّ لراية الأمويين داخل الشام، وخارج الشام..!!

ولكأنما كان "الإمام علي" يرى ببصيرته الثاقبه كل ذلك المصير..!!

فذات يوم أثناء مسيره مع جيشه إلى "صِفّين" بلغ به السير هذه الرقعة من الأرض، فتمهّل في مسيره ثم وقف يملّي مشهد الفضاء الرهيب، ومالت عبراتُه من مآقيه، واقترب منه أصحابه صامتين واجمين، لا يدرون ماذا أسال من مُقْلتي الأسد الدموع..!!

ثم سألهم ويُماه ممدةُ صوب تلك الأرض التي تعلقت بها عباءته:

- ما اسم هذا المكان؟

قالوا: كربلاء.

قال: "هُنا محَطّ رحالهم ومُهْراق دمائهم"..!!

واستأنف سيره مع المقادير..

تُرى مَن كان يعنـى.. ومَـن كـان ينْعـى..؟؟ أكـان يعنـى قُـرّة عينـه "الحسين" ومَن معه من إخوة له وأبناء..؟؟

أكـان يعنـى أولئـك الأبطـال الذيـن ستشـهد هـذه الأرض ذاتـها استشهادهم الرهيب والمَهيب بعد عشرين عامًا لا غير من هـذه النبـوءة الصادقة..؟

رُبما..

وربما لم يكن إلهامُه ولم تكن بصيرته يومئذ معلّقين بواحـد بذاتـه من أهل بيته المباركين.

فهو على أية حال يدرك أن المعركة التى بدأها من أجل الحق لـن تنتهى..

ويدرك أنه لن يصبر أحدٌ من بعده علـى لأوائـها وصراوتـها مثلمـا سيصبر أبناؤه الذين ورثوا البطولة كابرًا عن كابر..!

وحين نحتدم فى البصائر النقيّـة ولاؤهـا لحـق مقـدس، أو لمبـدأ جليلٍ، فإنّ هذا الاحتدام يتلقى فى لحظة إشراق روحىٍّ مددًا من الرؤيـة غير منظور، يكشف العيـب ويجـذب إلـى دائـرة الاستشـراف أحـداث الزمن البعيد..!!

ولعلّ شيئًا كهذا، حدث ذلك اليوم، فرأى الإمامُ التقىّ النّقىّ بـلاءَ أبنائه وحفدتـه، رأى بلاءهـم العظيـم فـى سـبيل القضيـة التـى حمـل لواءها، ورأى "محطّ رحالهم، ومُهراق دمائهم"..!

* * *

القضية إذن، كانت كما قلنا، قضيه "النبوة" لا "الملك"..

النبوة بكل تألقاتها الورِعَـة وموازينـها العادلـه.. لا الملـك الـذى

يريد نفر من الأمويين أن يردّوا به وثنية الجاهلية فى أثواب نكُرية..!!

والذين يدرسون معارك "الجمل، وصفّين، وكربلاء" خارج هذه الدائرة، لا يأمنون عثار تفكيرهم، وزيْغ أحكامهم.

ولقد رأينا كثيرين ممن تحدثوا عن "كربلاء" يُحمّلون "الحسين" مسئولية مصيره، ومصير الذين خرجوا معه..!!

و "الحسين" رضى الله تعالى عنه، يتحمل فى شجاعة وغبطة مسئولية ذلك المصير، ولكن ليس بالمعنى الذى يقصده هؤلاء..

فهم يرون أنه خرج تلبية لدعوة ثوار الكوفة إياه، باعتبار هذه الدعوة فرصة رآها سانحةً لاسترداد الخلافة من بيت معاوية إلى بيت الإمام..

وهم يلومونه، أو يكادون؛ لأنه لم يُصغ لِنصح الناصحين من عشيرته الأقربين؛ كى ينفى مكانه فى البلد الحرام "مكة" ناقضًا يديه من مشاكل الموقف الكالح الذى نتج عن استخلاف يزيد..

فهل كان ذلك كذلك..؟؟

أبدًا..

وإن الأمر لمختلفٌ جدًا..

فالقضية فى ضمير "الحسين" لم تكن قضية فرصة سنحتْ.. ولا هى قضية حق شخصىّ فى الخلافة يبتغى استرداده. ولا هى من القضايا التى يكون للإنسان الرشيد حق التخلى عنها..!

القضية فى ضمير التقىّ الشُجاع، كانت قضية دين. ومستوى عنده تخلّيه عن هذه القضية، وتخلّيه عن هذا الدين..!

صحيح أن "الشكل الخارجى" للقضية تمثّل يومها فى استخلاف

يزيد.. لكنّ "جوهرها" الصحيح كان واضحًا أمام وعي "الحسين" ورُشْده ونور بصيرته، تمامًا كما كان واضحًا من قبل أمام وعي أبيه الإمام، وأمام رُشده وبصيرته..!!

واستخلافُ يزيد على هوانه، لا ينفي عن القضية موضوعيتها العميقة، ولا يقلل من تبعة النهوض بها، بل هو يزيد من إلحاح هذه التبعات.

فـ: "يزيد" هذا، لا يملك ذرة من الصلاحية التي تؤهّله لأن يجلس من الأمة المسلمة حيث كان من قبل "أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي"..!!

لقد كانت خلافةُ واحد من طراره أدهى كارثة تنزل بالدولة وبالأمة لا سيما، وهو يُستخلف في عصر لا تفصله عن عصر النبوة والوحي سوى سنوات معدودات.. وفي جيل لا يزال يحيا فيه رجال شامخون أبرار من أصحاب رسول الله ﷺ أمثال "عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، والحسن، والحسين، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وأبي الدّرداء، وقيس بن سعد بن عبادة"..!!

ولئن كان هناك من خيار الصحابة والمسلمين من سكّن لهذا الوضع الأليم بعد وقوعه، فإنهم لم يفعلوا عن رضًا واقتناع، بل عن رغبة في تجنيب المسلمين مزيدًا من الحروب والآلام والدماء - الأمر الذي لم يتردّد "الحسن" نفسه عن النهوض به - من قبل - حين تنازل عن حقه في الخلافة لمعاوية، على النحو الذي سنراه عما قريب..

ولو أن معاوية وفّى بالعهد الذي أبرمه مع "الحسين" أمام المسلمين كافّة، فترك الأمر من بعده لمشورة الناس واختيار الأمّة،

لتغير موقف "الحسن" ولتغير بالتالي مجرى الأحداث.

إننا الآن نستطيع أن نبصر عدالة القضية التي ناضل دونها الإمام وأبناؤه، أكثر مما كان متاحًا لمعاصريها.. فهم كانوا ينظرون إليها من خلال حدَسهم وتقديرهم لاحتمالات المستقبل حين يستقر الأمر لبيت أبي سفيان، وحين تسهى إلى أيدي أبنائه مصاير الإسلام والمسلمين.

أما نحن اليوم، فالأمر بالنسبة لنا ليس أمر حدْس أو احتمال.

إنَّ ما كان حَدْسًا بالأمس، قد صار حقيقة..

وما كان احتمالاً وظنًا، أصبح واقعًا وتاريخًا..

فها هو ذا معاوية، لا يكتفي باغتصابه الخلافة، ثم لا يرغب وهو على وشْك لقاء ربه في التكفير عن خطئه، تاركًا أمر المسلمين للمسلمين.. بل يُمعن في تحويل الإسلام إلى مُلك عضوض وإلى مزرعة أموية..!!

فيأخذ البيعة ليزيد كولي عهد له يأخذها بالذهب، وبالسيف.

ثم ها هو يزيد يتربع على عرش أبيه بعد وفاته، فيهمل أمر المسلمين، ويعكف على اللهو بمُهوده وقُروده حتى يلقب بـ "يزيد القرود"..!!

ثم يسلط من قواده ورجاله من يُنزلون بالعباد والبلاد من الهول ما يخجل الشيطان نفسه من اقترافه..!!

فابن زياد، في الكوفة والبصرة، يحزّ رأس كل من تُسوّل له نفسه أن يقول: لِمَ..؟

ثم يقتل أبناء الرسول ﷺ وأحفاده وآل بيته في كربلاء قتلاً تتناهى في البشاعة والرّجْس..

ومسلم بن عقبة، مبعوث يزيد إلى المدينة المنورة دار الهجرة ووطن الأنصار وعاصمة الإسلام، يصنع بها وبأهلها من الوحشية والجريمة ما يتعاظم كل وصف..

وحتى مكة بمسجدها الحرام، يرسل إليها "يزيد القرود" من يستبيح، ويستبيح مسجدها الحرام.

ثم حين يمضي بيت أبي سفيان بموت يزيد، ويسطو على الخلافة بيت مروان، وهو شعبة أخرى، وامتداد آخر للأمويين يظهر الحجّاج ليشر الخراب والدمار والقتل في كل مكان باسم الأمويين، وفي سبيل دعْم ملكهم ووثنيتهم..

هذه الأهوال كلها، والتي نراها نحن اليوم بعد وقوعها، كان الإمام عليّ يُحسُّها ببصيرته قبل وقوعها..

كان بإلهامه الصادق يرى كل ذلك المصير، فقام قومته ليمنع الكارثة قبل نزولها..!!

وقام من بعده ابنه العظيم "الحسين" ليمنع امتداد الكارثة واستمرارها..!!

وهكذا نرى أن معركتهم الجليلة الباسلة لم تكن معركة حق شخصي في الخلافة..

ولا معركة ثأر جاهلي قديم..

* * *

إن الذي أدركه الإمام. قبل وقوعه، فنهض بحاماه، كان يدركه معه أولئك الذين وقفوا في صفه، وصمدوا معه إلى النهاية في إخلاص مكين

أدركه الصحابي الجليل "عمّار بن ياسر" الذي قال عنه الرسول صلى الله عليه وسلم:

"اهتدوا بهدْي عمّار"..

والذي قال عنه أيضًا "تقتل عمارا الفئة الباغية"

والذي أجمع الصحابة بلا استثناء، وفيهم معاوية ذاته على فضله وورعه وصدق نهجه وعظمة روحه.

أدرك "عمّار" نفس المصير وأمن بداية القصة، فصمّم على الخروج للقتال مع الإمام علي". مع أنه يؤمئذ كان قد جاوز التسعين من عمره.

إنه لم يجد عملاً أفضل من ذلك العمل، يختم به حياته المجيدة، فراح يصول ويجول، ملخّصًا إيمانه بقداسة القضية التي رفع "الإمام" لواءها في هذه الكلمات المضيئة الثائرة:

أيها الناس!!

سيروا بنا نحو هؤلاء القوم الذين يزعمون أنهم يثأرون لعثمان، والله ما قصْدهم الأخذ بثأره، ولكنهم دانوا الدنيا واستمرأوها، وعلموا أن الحق يحول بينهم وبين ما يتمرّغون فيه من شهواتهم ودنياهم..

وما كان لهؤلاء سابقة في الإسلام يستحقون بها طاعة المسلمين أو الولاية عليهم..

ألا إنهم ليخدعون بزعمهم أنهم يثأرون لدم عثمان..

وما يريدون إلا أن يكونوا جبابرة وملوكًا..!!

والذي نفسي بيده، لقد قاتلت بهذه الراية مع رسول الله ﷺ وهأنذا أقاتل بها اليوم..!!

والذي نفسي بيده، لو هَزمونا حتى يبلغوا بنا سَعَفات هَجَر، ما وهَن يقيني بأننا على الحق وأنهم على الباطل" .!!

إنها قصة تفوقتْ بعدالتها وبقداستها حتى على النصر ذاته..!

فلم يعد النصر مزيّة لها.. كما لن تكون الهزيمة إزْراءً بها.!

هكذا عاشت في ضمائر أهلها وشهدائها . كما عبّر وصوّر.. عمّار بن ياسر.. في كلماته السالفة:

"والذي نفسي بيده، لو هزمونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر، ما وهن يقيني بأننا على الحق وأنهم على الباطل" .!!

* * *

وإذا كان للحديث بقيّة تزيدنا إدراكًا لقداسة القضية التي ذهب "الحسين" شهيدًا لها، كما ذهب أبوه "الإمام" من قبل شهيدها وكما ذهبت معهما ثلّةٌ مباركة طاهرة من صفوة المؤمنين والأصحاب - فلتكن هذه البقية شهادةَ شاهدٍ من أهلها..!!

وهذا الشاهد هو: "معاوية بن يزيد" ثالث خلفاء بني أمية.

فقبل أن يموت - يزيد - في العام الرابع والستين للهجرة، خلع الخلافة، أو بتعبير أصحّ خلع المُلك على أكبر أبنائه - معاوية - الذي عُرف باسم "معاوية الثاني"

وكان "معاوية" هذا، شابًا تقيًا، ورعًا، عابدًا..

وسبحان من يُخرج الحيَّ من الميّت، والهدى من الضلال!

وعلى الرغم من أنه تسلّم الملك شابًا لم يجاوز الخامسة والعشرين

فإن تفوى روحه، كانت أقوى من إغراء شبابه، فلم يلبث في منصبه إلا بضعة أشهر حتى ضاق به، ودعا المسلمين إلى مؤتمر مشهود، ونهض يخطب الجمع الحاشد فقال:

"أيها الناس!!

إن جَدِّي معاوية، نازع الأمر أهله، ومن هو أحق به منه لقرابته من رسول الله ﷺ وسابقته في الإسلام، وهو: علي بن أبي طالب

ولقد ركب بكم ما تعلمون حتى أتته منيته، فصار في قبره رهين أعماله..

ثم تقلد أبي - يزيد - الأمر من بعده، فكان غيرَ أهل له..

ركِب هواه، وأحلمه الأمل.. وقصر به الأجل، ثم صار في قبره رهين ذنبه، وأسير جُرمه.!!

وإن من أعظم الأمور علينا علِمنا بسوء مَقلبه، وقد قتل عِتْرة رسول الله ﷺ، وأباح الحرم، وخرَّب الكعبة..!!

وما أنا بالمقدمْ أمركم، ولا بمتحمِّل تبعتكم فاختاروا لأنفسكم..

والله، لئن كانت الدنيا خيرًا فلقد نِلنا منها حظًا. ولئن كانت شرًا؛ فكفى ذرية أبي سفيان ما أصابوا..

ألا فليُصلِّ بالناس حسَّان بن مالك، وشاوروا في خلافتكم، يرحمكم الله..!!

ثم عاد مسرعًا إلى داره، ولزم بها عاكفًا على عبادة الله، حتى لقيه

راضيًا مرضيًا..

إن هذه الكلمات التي قالها "معاويه الثاني" ابن - يزيد - وحفيد - معاوية بن أبي سفيان - لتشكل برهانًا باهرًا على عدالة القضية التي هي في غنى عن كل برهان.

وهذا الشاب الصالح الذي أثقلت ضميره الحرُّ أوزارُ آبائه، فدُم بموقفه ذاك.. أو بالأحرى فدُم الصدرُ به وبموقفه وثيقه الإدانة كاملة وصادقة لأولئك الذين وقفوا من الإمام، ومن بيته، ومن القضية التي حملوا مشعلها، مواقف الكيد والعداء.

وإننا اليوم، وبعد مضي ما يقرب من أربعة عشر قرنًا على ذلك الصراع، لنجدُ حرارة الصدق ووضوح الحق في موقف "الإمام علي" من "معاوية".. ثم في موقف "الحسين" من يزيد.

إننا نتصور عصر النبوة، كما كان في عهد مشيئه وبنيه محمد رسول الله ﷺ.

ثم نتصوره كما كان في عهد خلفيه الراشدين الباهرين "أبي بكر و عمر"، فنرى جلالاً يسحر القلوب والألباب.!! ويأخذنا الأسى ونحن نرى بعض العواشي تغشى ذلك الجلال في عهد "عثمان" لا بسبب قصور في صلاحه وتقواه.. بل بسبب ذلك النفر من الأمويين الذين أساءوا استغلال سلطانهم.. وكذلك بسبب عوامل تاريخية كان لها دورها المسئول [1].

ثم نشرق الآمال في عودة ذلك الجلال لمطالعه العظيمة، وبألقائه الباهرة، حين يلقى عبءُ الخلافه على سليل بني هاشم، وتلميذ الرسول

---

[1] راجع كتابنا "عظماء الرسول"

* وبطل الإسلام "علي"..!!

ذلك أنه - كما نطالع سيرته - كان - رغم كل الفتن التي سبقت خلافته وصاحبتها - قادراً على إرجاع السيادة لفضائل عصر النبوة قديمه، وورعه، وزهده، وعلمه، وإخلاصه، وإحياء روحه، واقتدار عزمه..

كل ذلك - وكم كانت حظوظه منه وافرة - هيأه بفضل الله ونعمته، ليكون في تلك الأيام التي تلقى فيها أعباء الخلافة، الرجل الذي ينتظره زمانه، ومكانه، وتنتظره المناسبة على فارقٍ إليه وشوق..!!

أجل.. لقد كان بشخصيته وسلوكه وبأخلاقه وبضميره وبدينه، من أقدر العالمين على تجسيد عصر النبوة.. بكل قيمه السامية وفضائله العالية..

فهو رجل ورع من أرفع طراز يدخل الكوفة بعد استخلافه، فيرفض أن يسكن قصر الإمارة البديع ويقول "إنه فتنة". ثم يأوي إلى بيت من طوب نيئ يشبه أكواخ الفقراء..!! ويعمد إلى بيت المال فيخرج ما فيه ويوزعه على مستحقيه، ثم ينضحه بالماء ثم يصلي فيه لله رب العالمين إيذاناً بأن المال في عصره لن يكون فتنة.. بل سيكون رحمة!!!

ورجلٌ صدقٍ وشرفٍ من أرفع طرازٍ - يقولون له إن معاوية يتألف القبائل والجماعات بالمال - فأعط الناس كما يعطي، فيقسم أنه لن يرشو في الحق أحداً. لن يعطي مال الله الذي ائتمنه عليه لغير من يستحقه..!! ثم يرجونه ويلحون عليه أن يدع الولاة الأمويين في أماكنهم حتى يبايعوه وحتى تستقر خلافته وعهده، فيرفض ويقول:

"لا والله، لا أدعُ الله يسألني: لماذا أيقظتهم وهم غير أهلٍ لها ساعةً من نهار"..!!؟

* * *

ورجل ديمقراطية وشورى من أرفع طراز - يخضع لرأى الأغلبية فى موضوع التحكيم، وهو يؤمن أعمق إيمان بأنه خدعة ستلوذ الكارثة. ولقد حاول إقناع الذين معه بكل ما أوتى من بلاغة وصدق، ولكن دون جدوى.. وعلى الرغم من أنه آنئذ كان فى حرب قائمة بالفعل مما قد يعطيه الحق فى أن يمضى مع اقناعه، إلا أنه انحنى فى جلال وعظمة لحق الشورى ورأى الجماعة..!!

وتكرر نفس الموقف حين جرى الحوار لاختيار من يمثلهم فى التحكيم؛ فلقد نادى قوم باختيار "أبى موسى الأشعرى" وراح الإمام يمنّد اتجاههم، ويدعوهم لاختيار "عبد الله بن عباس" أقدر الناس على مواجهة الداهية "عمرو بن العاص" الذى سيمثل معاوية فى التحكيم، ولكنهم أصرّوا، وكانوا أغلبية، فتخلى عن رأيه لرأيهم..

ورجلُ عدالة ورحمة من أرفع طراز لقد كان فى أمسّ الحاجة إلى مؤازرة وُلاته فى موقفه العسير.. وكان ذلك يقتضيه المُلاينة فى محاسبتهم.. لكنه يرفض دائمًا أن يطلب النصر بالجوْر..!!!

ومن الجوْر عنده أن يتغافل عن أية هفوة من وُلاته، وهكذا راح يحاسبهم بعدالة صارمة، حتى خسر نُصرة الكثيرين منهم دون أن يُلقى لهذه الخسارة بالاً..!!

وأى صورة للعدالة وللرحمة يمكن أن يرقى إليها حكم كهذه الصورة التى يتخلى فيها "ابن أبى طالب" ودماؤه تسرف وأخته تسوع،

وقد جيء إليه بقاتله، فلا يشغل باله ولا يؤرق حياته في لحظات وداعها سوى مصير قاتله.. وحين يقدر على الكلام يفرح شفتاه عن هذه الكلمات:

"يا بني عبد المطلب!! لا ألفينكم تخوضون في دماء المسلمين خوضًا، تقولون: قُتِل أمير المؤمنين..

أحسنوا نُزُله - يعني قاتله - فإن أعش؛ فأنا أولى بدمه قصاصًا أو عفوًا.. وإن أُمتْ؛ فاضربوه ضربة بضربة..

ولا تمثّلوا بالرجل، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إياكم والمُثْلة، ولو بالكلب العقور"..!!

* * *

ورجلٌ نسُك من أرفع طراز، غزير الدمعة من خشية الله، دائم الإحباب لله - يلبس أخشن الثياب، ويأكل أجشب الطعام - ويحيا بين الناس كواحد منهم..

وكان نسُكه كحلقة تنتظم نسكه كعابد، فكان يأبى إلا مشاركة الناس في كل ما ينزل بهم من ضرٍّ وشظف. ويحرص نفسه من ذلك بالنصيب الأوفى..!!

ولقد لخص لنا نُسك خلافته وإمارته في هذه الكلمات:

"أأقنع من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين، ثم لا أشارك المؤمنين في مكاره الزمان..!!؟

والله، لو شئتُ لكان لي من صفْو هذا العسل، ولباب هذا البُرّ، ومناعم هذه الثياب..

ولكن، هيهات أن يغلبنى الهوى؛ فأبيت مبطانًا وحولى بُطونٌ غَرْثـى وأكبادٌ حَرّى"..!!

* * *

هذه الومضة من حياته ومن عظمة منهجه وسلوكه، تصور على نحـو متواضع القضية التى نهض يقـاتل من أجلـها.. قضيـة استمرار عصـر النبـوة بكـل فصائلـه ومزايـاه، وإنـها لقضيـة حديـرة بـولاء لا ينتـهى، وتضحيات لا تفنى.. وهى لم تكن بالنسبة للإمام "علـى" قضيـة خاصـة، ولا قضية شخصية، بل هى قضية الإسلام كله، وقضية كل مؤمن وأوّاب.

وإذا كانت الأقدار ستؤخّره وتُبـاعد مـن بعـده، بـأن يكونـوا أعظـم شهدائها وأشرف قرابينها؛ فلتكن مشيئة الله..

إن هـاك من يموتون مـن أجـل البـاطل، ومـن يمـوتـون فـى سـبيل الحق؛ فما مزية الحق على الباطل فى مجال التضحية والفداء..؟؟

مزيّته أن ضحاياه شـريفة ورفيعـه وغاليـة.. بينمـا ضحايـا البـاطل صغيرة دنيئة مُحقَّرة..!!

فلتكن هو وأبناؤه شرفًا للحق فى مماتهم واستشهادهم، كما كـانوا شرفًا له فى مَحياهم..!!

وهكذا كان من الصعب عليه، بـل مـن المسـتحيل أن يـترك قضيـة الإسلام للأهواء التى هبّت عليه جانحة، جامحه.

كانت "المُهادنة" مستحيلة..

وكانت "المُسايرة" أكثرَ استحالة..

ولم يكن أمامه سوى أن يحمل سيفه وكفنه، ثم يمضى..

فللمسئوليات العظام خُلِق.. ولتضحيات يعيش.

وإنه لسليلُ بيتٍ، كانت العظمة دثاره، حتى في الجاهليه وقبل الإسلام..

وإنه لتلميذُ دبٍ نشأ، ونما، بين أروع التضحيات وأشرفها وأسماها.

إنه لحواريّ رسولٍ جعل صلاته، ونسكه، ومحياهُ ومماته لله رب العالمين..

فأين يذهب من هذا كله..؟؟

وأين يذهب منه أبناؤه الذين ربّاهم على نهجه، وغذّاهم بفدائيته..؟؟

وماذا ينتظره وينتظرهم من أخطار..؟؟

الموت..؟ القتل..؟ الشهادة..؟

لبأت الموت، وليأت القتل، ولتأت الشهادة !!

ليجيء ذلك كله مره، وعشراً وألفًا.. فذلك دورهم في الحياة أن يعلّموا الناس في جيلهم وفي كل الأجيال، أنّ الوقوف إلى جانب الحق، والتضحية المستمره في سبيله هما أصدق مظهر لشرف الإنسان وقداسة الإنسان..!!

أليسوا آل بيت رسول الله ﷺ الذي قال.

"والذي نفسي بيده، لوددتُ أن أقتَل في سبيل الله، ثم أحيا، ثم أقتَل، ثم أحيا، ثم أقتَل"..!!

بلى.. إنهم أهله وأبناؤه..

ولقد حَملوا مصايرهم فوق أكفّهم، ومضَوا إلى مسئولياتهم في

حُبور..!!

لم يكـن هنـاك مـا يزعجـهم، سـوى أن الحـرب التـى يخوضونـها مضطرين ليست من نوع تلك الحروب التى كانوا لا يلاقون فيـها سـوى حيوش الوثنية والشرك، فيفلُّون سلاحها ويُسوّون أقدارها بالتراب..!!

ورغم صراوة الظروف التى فُرضت عليهم المنال، ورغـم إلحاحـها الدائب، فإن إيمانهم بأهميه السلام لم يعدّم من يُجسّده من آل البيـت، فيقدم فى سبيل حقن الدماء تضحيه أخرى عظـيمه ..!!

ذلكم، وهو "الحسن بن على" رضى الله عنه ورضاه.

فإلى الكوفه.. لنشهد موقفه، ونقفو خطاه.

الفصل الثالث

# السيد يفرض السلام

عندما كان "الإمام علي" يجود بروحه الطاهرة على أثر ضربة غادرة تلقاها من مغتال أثيم، سأله بعض أصحابه أن يستخلف من يختار من أبنائه وأهله فأبى. ودعاهم أن يختار الناس بعد موته من يحبون ويرتضون.

أجل.. لم يوص لأحد من أبنائه بالخلافة، فقد كانت هناك وصية أخرى تشغل باله ويدخرها لهم. فدعا إليه "الحسن والحسين" وقال لهما:

"أوصيكما بتقوى الله..

ولا تبغيا الدنيا؛ وإن بغتكما.. ولا تأسفا على شيء منها روى عنكما..

افعلا الخير..

وكونا للظالم خصما، وللمظلوم عونا..

كلمات جديرة بصاحبها، ووصية جديرة بموصيها. !!

* * *

وبلغت الناس حولهم، فوقعت أعينهم وقلوبهم جميعا على رجل واحد بسطوا إليه أيمانهم مبايعين.. كان ذلك الرجل الكريم

"الحسن بن علي" الذي كان أكبر أبناء الإمام الشهيد.

وتلقى "الحسن" البيعة على أثر فراغه من الصلاة على أبيه ودفنه..

تلقاها كارهًا دون أن يتركوا له حق الخيار والاعتذار. إذ قام "قيس بن سعد بن عبادة" بطل الأنصار والإسلام، فبايع "الحسن"، حيث تقدمت على أثره الجموع الحاشدة، ثم الجموع الوافدة..

ولم يكد الأمر يستقر للحسن.. ولكن لا . فإن الأمور يومئذ كانت أبعد ما تكون عن الاستقرار!!

ولقد كانت حُلْكة الأحداث تجعل من قوله البيعة، فالخلافة تضحية من أكبر التضحيات.

ولعل شيئًا ما، لم يُعنِ "الحسن" على تقبلها مثلما أعانه ذلك الأمر الذي وقر في صدره منذ يَفاعته وشبابه.

ذلكم هو حبه الوثيق للسلام، ونُوءة الرسول ﷺ له منذ طفولته بأن الله سيحقن به دماء المسلمين في يوم من الأيام.. إن أصحاب رسول الله ﷺ يذكرون ذلك اليوم الذي صعد فيه الرسول ﷺ منبره، وقد صحب حفيده "الحسن" وكان طفلا يحبو، حيث أجلسه إلى جواره، وضمه إليه، وقال:

"إن ابني هذا سيِّد..

وعسى الله أن يصلح به بين طائفتين من المسلمين"

والآن، تجيء الأوان المناسب - أوفى ما تكون المناسبة - لتحقيق هذه النبوءة الصادقة.!!

وها هو ذا أمير المؤمنين "الحسن بن علي" يواجه المواقف

بتقديرين:

أحدهما نابع من طبيعته وشمائله..

وثانيهما، منبعث من ظروف المعركة وآثارها..

فأما عن الأول؛ فقد كان الحسن بطبيعته يؤثر السلام على الحرب وكان يألف الأناة، ويختار في معالجة المشكلات أقرب الحلول من السكينة والقصد..

وعلى سبيل المثال، نراه حين حوصرت المدينة في عهد الخليفة "عثمان" وحوصرت دار الخليفة نفسها، واستنفد الإمام "علي" طاقته وجهده في إطفاء الفتنة دون جدوى. يتقدم هو لأبيه الإمام برأيه في أن يُغادر الإمام المدينة؛ حتى لا يُقتل الخليفة وهو بها فيتخذها خصومه وحُسَّاده مادة للتشويش حوله..!!

وكذلك حين استشهد الخليفة "عثمان" وعرض الثوار الخلافة على "الإمام علي" فرفضها، ثم عُرضت على آخرين من الصحابة فلم يكن أمامهم سوى الرفض تأسيًا بعليّ.. ثم زحفت الفوضى تهدد كل شيء فعاد الثوار إلى "علي" ومعهم قادة الصحابة المسلمين يلحون عليه بقبولها فقبلها مُكرهًا..

يومئذ، كان للحسن رأي آخر يتّسق مع طبيعته، فحواه أن يرفض أبوه البيعة، حتى يأتيه بإجماع المسلمين من كافّة أقطار الدولة..!!

ولقد كان يعلم أن البيعة تنعقد شرعًا وعُرفًا بمن حضر الحرمين من المهاجرين والأنصار. لكنه إمعانًا في نشدان السكينة وتجنّب الفتنة، رأى أن يركب "الإمام" الصعب من الأمور، وينتظر مهما تكن الظروف بيعة جميع الأقاليم..

ومثل ثالث: موقفه حين خرجت "السيدة عائشة" ومعها "طلحة والزبير" إلى البصرة، ليحرضوا أهلها ضد فتنة "عثمان".

يومها رأى "الإمام علي" وقد أصبح بحكم خلافته مسئولاً عن أمن الدولة وسلامة الأمة. رأى أن يخرج وراء هذا الركب ليلوي زمامه عمّا عساه يثير حربًا أهلية، ويشجع حكام الشام على التمرد والعصيان!

لكن "الحسن" سبحانه لطبيعته المسالمة، رأى أن يبقى أبوه بالمدينة بل وأن يعتكف في داره حتى تمر الفتنة بسلام. !!

هذه المواقف الثلاثة تكشف عن طبيعة صاحبها، وعن مدى تعلّقه بالأناة، وإيثار السلام.

وأما عن التقدير الثاني، الذي أزجته ظروف الحرب وآثارها، فإن الحرب التي خاضها "الإمام علي" كانت قد فجّرت من المشاكل والهموم ما يهدّ الجبال.

وكانت آثارها المرهقة، قد أجهدت المجتمع والدولة كليهما.

وكان "الحسن" وهو يتلقّى البيعة بيمينه، يرنّ في سمعه صدى كلمات أبيه الناقمة والآسفة التي وجهها في أخريات أيامه لأهل الكوفة الذين كانوا - وهم أنصاره - أشدّ إرهاقًا له من خصومه. !!

" - أما والله لوددتُ أن الله أخرجني من بين أظهركم، وقبضني إلى رحمته من بينكم..

فقد والله ملأتم صدري غيظًا، وجرّعتموني الأمرّين أنفاسًا، وأفسدتم عليّ رأيي بالعصيان؛ حتى قالت قريش: إن ابن أبي طالب رجل شجاع، ولكن لا عِلم له بالحرب..

لله أبوهم!! هل كان فيهم أشد لها مراسًا وأطول معاناةً مني .؟؟

لقد نهضت فيها وما تبعت العشرين وها أنا اليوم وقد عدوت الستين.. ولكن، لا رأى لمن لا يُطاع"..!!!

كانت هذه الكلمات للإمام، يدوّى في سمع "الحسن" صداها.. كما كانت تلحّ عليه في وضع نهاية للصراع الذي حاول أبوه أن يتحاماه دون جدوى.

ولكن ذلك لا يعني بحال أنه آثر السلام وهو في "مركز ضعف" لا، بل آثره وهو في "مركز قوة" مكين.

يقول "الحسن البصري" رضي الله عنه:

"استقبل والله الحسن بن علي معاويه بكتائب أمثال الجبال فقال عمرو بن العاص لمعاويه: إني لأرى كتائب، لا تولّي حتى تقتل أقرانها، فقال معاويه: إذا قتل هؤلاء أولئك، فمن لي بأمور الناس"

ورغم ما كان يأهل الكوفه من تفسُّخ وتردّد؛ فقد كان تحت تصرف "الحسن" حين آثر السلام أربعون ألف مقاتل، يشكّلون جبهه واحدة، قويه وصامدة.. تحت إمرة رجل من أعظم رجال الإسلام وقوّاده ـ ذلكم هو: "قيس بن سعد بن عبادة"..

ولقد كانوا مصممين على مواصلة الحرب ضد معاوية تصميمًا حمل بعضهم على مجابهه "الحسن" حين رأوه يعتزم الصلح وإقرار السلام مجابهة قاسيه وعنيفه رغم حبهم له وتوقيرهم إياه.

هو إذن لم يؤثر السلام على ضعف ولا عن عجز.

ولم تكن الظروف العسيرة التي تسلم الخلافة فيها لتجاوز قدرها

في كونها مجرد "موضوع" لتفكيره في السلام..

أما "مصدر" تفكيره في السلام فكان طبيعته وخصاله

وهكذا قرر أن يعرض، بل أن يفرض السلام على معاويه.

وقولنا "يفرض" السلام، يعبر لا محالة عنه، فقد تغلب على ظروف كثيرة لكي يجعل السلام حقيقة ناجزة.

وحسبنا أن نعلم أن أخاه "الحسن" مضى شوطاً بعيداً في معارضته حتى قال له "الحسن":

"لقد هممتُ أن أحجرك في دار موصده الأبواب، ثم لا أدعك تخرج حتى أنتهي مما أريد"..

* * *

كان "معاويه" قد تحرك بجيشه من الشام قاصداً الكوفة، عندما علمَ باستشهاد الإمام واستخلاف الحسن..

وكان الحسن قد خرج على رأس جيشه للقائه.

وإذ هم في طريقهم إلى المدائن، نهض بين صفوف جيشه وقال:

"إني قد أصبحتُ، لا أحمل لمسلم ضغينة،

وإني أنظر إليكم، بنظري إلى نفسي، وقد رأيت رأياً، فلا تردّوا عليّ رأيي:

إن الذي تكرهون من الجماعه أفضل مما تحبون من الفرقة"!!

وثار الجيش - كما ذكرنا من قبل - لكنه كان قد وطّد عزمه على حقن الدماء.

وكان معاوية من جانبه يتوق للسلام توقَ العريق إلى زورق النجاة.

فأرسل مبعوثين إلى المدائن، للتفاوض مع "الحسن" وكان "عبد

الرحمن بن سمره. وعبد الله بن عامر. تلعهما "الحسن" شروطه التي لم تكد معاويه تسمع فيها بعد، حتى تقبلها في غير تردّد او تسؤل.

وتركب شروط "الحسن" لتصبح في هذه البنود الأربعة:

أولا أن ترجع الخلافة بعد معاويه إلى المسلمين حتى يختاروا بمشيئتهم الحرة، من يرونه أصلح لقيادتهم وأجدر.

ثانيًا. ألاّ يؤخذ الذين ناصروه وناصروا أبيه الإمام من قبل بما صنعوا ضد معاويه، وألاّ يُحرم أحد منهم حقه وعطاءه.

ثالثًا أن تكف الأمويين عن حملة السّباب واللعن التي يصرفونها ضد الإمام، ويشجعون عليها..

رابعًا. أن يكون عطاؤه وعطاء أخيه "الحسين" وافرًا وجزيلاً. ولقد حدّد بنفسه مقدار هذا العطاء.

وإذا كان هناك من بين هذه الشروط ما قد يبدو غريبًا على أمره، ويحتاج إلى مناقشه وتفسير، فذلكم هو الشرط الرابع والأخير.

لقد يبدو غريبًا أن نفرط رجل مثل "الحسين" بن علي، وحفيد الرسول ﷺ في طلب عطاءٍ كثير له ولأخيه.

ولكن، كما يقال: إذا عرف السبب، بطل العجب.

وحسبنا أن نعرف فيم كان ينفق "الحسنان" أموالهما لندرك على الفور الحكمه في هذا الاشتراط.

وقبل هذا، علينا أن نذكر أن ميزانية الدوله الإسلامية، كانت آنذاك قد بلغت مدى هائلا من الكفاية والثراء.

وبدأ ذلك النمو المطرد منذ فتوح الإسلام في عهد "عمر

وفي عهد معاويه، كانت أموال عزيزة تُنفق وتُبعثر في سبيل دعم حكمه وتركيز الولاء له.

بينما كان "الإمام علي" وهو خليفة مسئول في العراق يعطي المسلمين حقوقهم من بيت المال بالسوية، رافضا أي تمييز أو شرف..!! حتى لقد أغضب بعض أنصاره، حين رفض أن يتألف الناس بالمال، ويختص بعض القبائل بأكثر من حقها، قائلا عبارته المأثوره:

"أتأمرونني أن أطلب النصر بالجور"؟!

والآن، بعد أن يتصالح الحسن ومعاويه ويصبح أمر الخلافه كله له، فلن يكون هناك سوى بيت مال واحد هو الذي يشرف عليه معاويه بحكم سلطته وسلطانه.

و "معاوية" يعطي الأموال وفق مقاييسه الخاصه.

فماذا يكون الموقف إذا أخلف صلحه أو بعض صلحه غدا، فكف العطاء أو بخل عن بعض أولئك الذين كانوا من قبل يناصرون "الإمام" ويناصرون "الحسن"؟؟

لابد للحسن إذن أن يتحوط لهذا الاحتمال.

وهنا يفضي بنا الحديث إلى حيث نعرف أين كان ينفق "الحسن والحسين" أموالهما..

لقد كانا يعودان بالكثير منها على نفر من الذين فقدوا ثرواتهم في سبيل القضية التي ناصروا فيها الإمام.

وكانا يغدقان برهما ونداهما على أولي الأرحام، وعلى الفقراء والمساكين..

لقد انفرد "الحسن" بأنه الرجل الذي قاسم الله ماله ثلاث مرات.

وخرج عنه كله مرتين..!!

ورجل هذه شيمته، لا يطلب المال ليترف به، إنما يطلبه ليؤدي به حقوقاً كثيرة، أهونها كفالة الأرامل والأيتام الذين استشهد أزواجهم وآباؤهم وهم يقاتلون تحت راية الإمام..!!

فمن أجل تلك الحقوق، ومن أجل شغفه بالخير والبر اشترط لنفسه ولأخيه وفرة العطاء..

وحسبنا في هذا المقام شهادة "معاوية" نفسه، فذات يوم أعد أحمال الهدايا التي كان يرسلها بين الحين والحين لصفوة الصحابة في مكة والمدينة.

وبينما القافلة تتهيأ للسفر، نظر معاوية فيمن حوله وقال لهم: "إن شئتم أخبرتكم بما يصنع القوم بهذه الهدايا"

ثم راح يسمي بعض الأسماء، ويسوق الحديث عنها، حتى جاء ذكر "الحسن والحسين" فقال:

".. وأما الحسن، فلعله يدع لزوجاته بعض الطيب، ثم يترك لمن حوله كل شيء..!!

وأما "الحسين" فيبدأ بأيتام الذين قتلوا مع أبيه في صفين فإن بقي بعد ذلك شيء نحر به الجزر، وسقي به اللبن"..!!

أجل.. هذه شهادة "معاوية".. وفيها فصل الخطاب!!

ومن فصل الخطاب أيضاً، أن العطاء الجزيل الذي فرض لهما، لم يكن يكفيهما، مع أنهما لم يعرف عنهما قط عيش المترفين ولا حياة المسرفين..!!

ولقد تراكم على "الحسين" دين ثقيل، وانتهز معاوية الفرصة

فعرض عليه قدرا كبيرا من المال يقضي به ديونه، يطير بقيه عن ماء كان للإمام "علي" بالمدينة، وكان الإمام قد أهداها فقراء المدينة وأهلها، يربحون منها بغير حساب.. ورفض "الحسين" هذا العرض..

فلم إذن كانت هذه الديون رغم وفره العطاء لقوم لا يحبون في ترف ولا في سرف..؟!

إنها كانت بسبب حقوق مهجورة، وعطايا مبرورة تعودها الكرام، أبناء الكرام..!!

قبل معاوية شروط الصلح من فوره، وتنازل له الحسن عن الخلافة وسارع معاوية إلى الكوفة ليستقبل بيعة أهل العراق..

وفي الجمع الحاشد من المسلمين، دعا "الحسن" لإلقاء كلمة، فوقف "الحسن" والأبصار شاخصة إليه، والأنفاس معلقة بشفتيه اللتين لا يدري أحد عن أي نوع من القول ستنفرجان.

وجاءت كلماته في تلك المناسبة على وفاق سعيد ومجيد مع صاحبها العظيم!!

قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

"أيها الناس..

إن الله هداكم بأولنا.. وحقن دماءكم بآخرنا. ألا إن أكيس الكيس التقي، وإن أعجز العجز الفجور. وإن هذا الأمر الذي اختلفت فيه ومعاوية: إما أن يكون أحق به مني، فقد تركته له..

وإما أن أكون أحق به منه فقد تركته لله عز وجل، ولخير أمة محمد ﷺ وحقن دمائها"..

ثم التفت صوب معاوية وقال:

(وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين)..!!

إن العظمة الإنسانية لتكشف عن أصالتها فى مثل هذه المواقف ويمثل هذه الكلمات.. حيث يلتقى الصدق، والقوة، والترفع، والحكمة أسعد لقاء..!!

ومضى كل إلى سبيله..!!

معاوية إلى الشام عاصمة ملكه العريض.. و "الحسن" إلى المدينة، قرير العين بما حقن من دماء، عظيم العنم بما بذل من فداء.. مرددا كلماته المضيئة هذه:

"لقد كانت جماجم العرب بيدى فى العراق، فسالم من سالمت. وتحارب من حاربت.. ثم تركتها ابتغاء وجه الله"..!!

ولقد وفى بعهده مع معاوية. ووفى بالعهد معه أخوه "الحسين" الذى كان قبل إبرام الصلح من أشد معارضيه.

نرى، هل سيفى معاوية؟ أم أن إغراء السلطة المطلقة سيجشمه مشقة الوفاء..؟؟

على أية حال، فقد أدى الحسن ما اعتقده واجبا، وأعطى من ذات نفسه ما هو أهل له.

لقد ترك للآخرين دنياهم، وعكف هو على الطاعة، والعبادة والخير..

عابدا: يحب الله ويخشاه، ويخرج إلى الحج من المدينه إلى مكة أعواما كثيرة ماشيا على قدميه والسجائب تقاد بين يديه، حتى إذا سئل عن سبب هذا الإجهاد لنفسه أجاب:

"إني أستحي أن ألقى ربي، ولم أمش على قدمي إلى بيته"..!!

جوادا: لم يكن يبقي من ماله شيئا.. لا يعرف مكروبا إلا فرج كربته، ولا غارما إلا قضى دينه..

سبدا: لا يعرف الدنيه ولا يفعلها، ولا يعرف السوء طريق إلى لسانه ومقاله..

يقول "محمد بن إسحق"

"ما رأيت أحدا كان إذا تحدث تمنيت ألا يسكت، مثل الحسن بن علي.. وما سمعت منه كلمة سوء قط.. وإن أشد كلمة سمعتها منه، هي تلك التي قالها حين وقعت خصومة بينه وبين عمرو بن عثمان، فقال الحسن: ليس له عندنا إلا ما زعم أنه.. تلك أشد كلمة سمعته يقولها"..!!

ولقد تحدث رضي الله عنه راسما للناس صورة المؤمن المثالي الرشيد، فقال:

"إنه من تصغر في عينه الدنيا ويخرج على سلطان بطنه، وفرجه، وجهله..

لا يسخط ولا يتبرم.

إذا جالس العلماء، كان على أن يسمع أحرص منه على أن يتكلم.. وإذا غلب على الكلام، لم يغلب على الصمت..

لا يشارك في ادعاء ولا يدخل في مراء..

لا يغفل عن إخوانه، ولا يختص نفسه بخير دونهم.

وإذا تردد بين أمرين، لا يدري أيهما أقرب إلى الحق، نظر أيهما أقرب من هواه، فخالفه واتقاه"..!!

هذه خلاصة لدستور ومنهاج نفسه، أفلا يكون فرار العبد إذن بهذا السلام الذى سيوفر له فرصة العكوف على تصانته ومزاياه يسميها ويزكيها..؟! بلى.. ولقد اسعر وأخوه وآل بيتهما بمدينة رسول الله ﷺ..

ولم يكد تتزاح عن الناس فى شتى الأقطار عمرات ما كانوا فيه من حلاف وصراع، حتى راحت أرواحهم تهفو نحو المدينة، وخواطرهم تطوف من قريب وبعيد حول ريحانتى رسول الله ﷺ..

ومع مرور الأيام، كان تطلع المسلمين إلى المدينة بما فيها من هدى ونور، يفوق تطلعهم إلى دمشق رغم ما فيها من دنيا وإغراء..

وراحت محالسهم وندواتهم فى كل بلد تردد ما نقله الثقات من أصحاب الرسول ﷺ عن حبه لابنيه "الحسن، والحسين".

كان الناس يسمعون ويتساءلون أنباء هذا الحب العظيم الذى أضفاه عليهما جدهما النبى ﷺ، فتكاد أفئدتهم تطير شوقا إليهما.. حتى بعض أولئك الذين ناصبوهما من قبل العداء

وراح المسلمون يرددون تلك الأحاديث التى تصور قدرهما، والتى حباهما الرسول بها كثيرا:

"الحسن، والحسين سيدا شباب أهل الجنة، بعد عيسى ويحيى عليهما السلام"..

"هذان ابنى.. وابنا ابنتى.. اللهم إنى أحبهما فأحبهما، وأحب من يحبهما"..

"اللهم هؤلاء أهل بيتى فأذهب عنهم الرجس، وطهرهم تطهيرا"..

"الحسن، والحسين ريحانتاى من الدنيا".

"حسين مني، وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسينا"..

وهكذا استولى على الناس ولع نبيل، بتتبع أنباء حياتهما - منذ أهلا على الحياة.

كيف اختار الرسول ﷺ بنفسه اسميهما. ؟ كيف كان بداعبهما .؟ كيف كان يحزن أن يسمع بكاءهما..؟

وراحت الوفود من كل مصر تشد رحالها إلى المدينة لتلقى بها ابني رسول الله ﷺ وأحب الناس إليه، ولترتشف من حكمة "الحسين" الذى عكف على إلقاء الدروس والعظات بمسجد الرسول ﷺ..

وكانت حلقات درسه غاية فى الجلال والمهابة..

وصفها معاوية نفسه فقال:

"إذا دخلت مسجد رسول الله ﷺ، فرأيت حلقة فيها قوم كأن على رءوسهم الطير؛ فتلك حلقه أبي عبد الله الحسين"..

كذلك أخذ الشاكون من ظلم ولاة معاوية واستهتارهم، يغذون السير إلى المدينة حاملين شكواهم إلى "الحسن والحسين" فيدعوان الناس للصبر، ويرسلان لمعاويه بالصح..

ترى، هل سيصبر بنت أبي سفيان على هذه المكانة المتصاعدة دوما فى قلوب الناس للحسن وأخيه وأهل بيته. ؟؟

كلا...

وذات يوم، دس للإمام الحسن السم فى الطعام..!!!

ويمسك التاريخ فى هذه الجريمة الدنيئة، بإحدى زوجاته وهى - جعدة بنت الأشعث بن قيس - كما يمسك بأصبع الغدر الأموى.. ومن

عجب أن الأشعث بن قيس، ولد جعدة - كان من أبرز أنصار الإمام علي - ثم كانت له أثناء خدعة التحكيم وبعدها مواقف مشبوهة، ومحاولات مريبة.. كانت سببا في أكثر ما نزل بالإمام يومها من آلام وأخطار..!!

ومرض "الحسن" عليه السلام مرض الموت.

وهبت أصابه فطرته وإيمانه متألقة، حتى تحسب وطأة هذا الاغتيال الخفي، والسقم الفاجع الأليم!!

ففي علته هذه، أخذ أخوه "الحسين" يلح عليه كي يبوح له بمن يعتقد أو يظن أنه صاحب هذه الجريمة النكراء

لكن جدير الرسول العظيم ﷺ، لا ينسى مبدئه تحت سحب آلامه فيسأل أخاه:

"وفيم سؤالك عمن سقاني السم..؟

أتريد أن تقاتلهم..؟

لا.. إني أكل أمرهم إلى الله..!!

انظروا..

إنه حتى في غمرة الموت لا تتخلف إرادته عن مبادئه، وينفي رجل الأبدة والسلام فيه، متفوقا على الألم، وعلى الكراهية. بل وعلى حقه العادل في القصاص المشروع..!!

وراح يملأ أيامه الباقية بالصلاة والدعاء، مرددا منها ذلك الدعاء الذي كان جده الرسول ﷺ قد علمه له منذ شبابه.

"اللهم اهدني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت، وتولني فيمن توليت، وبارك لي فيما أعطيت، وقني شر ما قضيت، فإنك تقضي ولا

يقضي عليك، وإنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت تباركت ربنا، وتعاليت"..

لقد هداك الله - أبا محمد - وعافاك، وتولاك، وبارك لك فيما أعطاك..

وما تركت مقاديرك العظيمة جرعة السم تأخذ طريقها إليك إلا لتستكمل بالشهادة والفداء، شرف الانتماء إلى بيت القرابين والشهداء..!!!

* * *

وبعد.. فقد آن لبطل السلام أن تزف إلى الجنة روحه.

ولكن لا تزال أمامنا وصية يريد أن يوصي بها، فقد كان شوقه عظيما لأن يدفن مع جده الرسول ﷺ..

وكان قد استأذن "السيدة عائشة" رضي الله عنها في ذلك، فأذنت له..

والآن، وشمس حياته تميل للغروب قال لأخيه الحسين:

"إذا مت فادفني مع النبي ﷺ، فإني كنت قد طلبت ذلك من عائشة وأجابتني. وإذا عارضك بنو أمية، فلا تراجعهم وادفني في البقيع..!

ومن أسف أن الذي توقعه قد حدث.. فرفض مروان بن الحكم أمير المدينة من قبل معاوية أن تحقق رغبة الشهيد المسجى.. وأنزل إلى الشارع حرسه المسلح في خسة ودناءة تليقان بمروان، وتمن على شاكلة مروان..!!

ورأى "الحسين" رضي الله عنه ذلك، فانتضى سلاحه، وصمم على

إنفاذ وصية أخيه..

لكن نفرا من الصحابة الأجلاء ذكروه بالعبرة الأخيرة من الوصية وحملوه عليها:

"فإن منعوك، فلا تراجعهم، وادفنى فى البقيع"

* * *

وشرف ثرى البقيع بهذا الضيف المجيد..

وآبت إلى وطنها فى جنات الخلد روح السيد.. وروح الشهيد!!.

الفصل الرابع

# العـــاصفـــــــــة تـــــزأر ..

خلص الميت لمعاوية على النحو الذى أراد. وينازل "الحسن" له عن الخلافة سكنت كل الرياح التى كان يحرف هبوبها على عرشه وحكمه. فراح يُصرف شئون إمبراطوريته من أقوى إمبراطوريات عصره كما يهوى وكما تشاء، وراح يستخدم مزاياه الشخصية وكفاءته، كما يستخدم كفاية الذين حوله أبرع استخدام.

راح يوجه كل المزايا وكل الكفايات نحو غاية واحدة هى دعم سلطانه.

فحلمه، ودهاؤه، وعطاؤه. كل ذلك سعْ الناس ما تركوه وسلطانه، فإذا هدّد هذا السلطان شىء، فالحلم والدهاء، والصبر والعطاء.. أسلحه نزل إلى المعركة لتدفع عن السلطان مخاوفه.. فإذا عجزت؛ فالسيف والقتل بغير إبطاء!!

وإن له فى ذلك عبارة مأثورة:

"إنى لا أحول بين الناس وبين ألسنتهم، ما لم يحولوا بينها وبين سلطاننا"..!

ولطالما يحدثنا التاريخ عن قوم كانوا يحبهونه بقوارض الكلم فى وجهه وأمام الناس، فلا يزيد على أن يضحك ثم يضحك.. ثم يُحزل

لهم العطاء!!

ولقد كتب يومًا لزياد، والله على الكوفة والبصرة يقول له.

"إنه لا يسعني أن أسوس الناس بسياسة واحدة، فيكون مقامًا مقام رجل واحد.

ولكن يكون أنت للشدة والغلظة، وأكون أنا للرأفة والرحمة فيستريح الناس بينا"..!!

ولو أن معاوية ـ غفر الله له ـ كان أكثر اهتمامًا بسلطان الإسلام منه بسلطان بني أمية، لوفّر على الإسلام وعلى المسلمين كثيرًا من المخاطر والمهالك التي أفضى إليها حرصه على ذلك السلطان..

لقد جشّمه ذلك الحرص من الشَطط ما كان يعود عليه نفسه بالغرم الأكيد.

وإنا لنذكُر ـ مثلا ـ تشجيعه لنزعة القبيلة وإثاره في العطاء وفي المكانة بعض القبائل على بعضها الآخر، فهو يغدق على "القبائلية" ويميزهم في العطاء. ويجعل لهم كيانًا عسكريًا قائمًا بذاته.. ثم لا يلبث أمرهم أن يعلو ويتفاقم، حتى راحوا يمنّون عليه بما هو فيه من سلطان، ويقولون. لولا نحن ما كان معاوية.. فيضطرب الأمر في يده ويعالج الموقف بخطأ جديد حين ينحاز إلى قبائل "القيسية" فيُغدق عليهم الأموال والامتيازات.. ثم لا يُجديه ذلك شيئًا، فيُرهق نفسه في التوفيق بين القوتين الكبيرتين من جديد..

كذلك نرى أن الحلم الذي لم يُعرف في التاريخ بمثل ما عُرف به. نرى هذا الحلم وهو أبرز خلائقه ومميزاته لا يعني عنه شيئًا في درء صفة القسوة والقتل عن عصره وحُكمه. فمصرع "حُجر بن عدي"

وأصحابه بأمر معاوية وعلى مقربة من قصره بالشام بعير جربرة ولا دنب، حدثتْ يُجلّل سلطان معاوية بالسوء..

لقد كان حدثًا بشعًا، حتى لقد ندم هو نفسه على اقترافه، وبقى إلى آخر عمره غُصّة تُفزعه وتُضنيه..

ثم وصيته إلى ولده يزيد أن "إذا حرج علىك عبد الله بن الزبير فظفرت به فقطعه إربًا.. إربًا"!!..

ثم قسوة ولاته، واستعلاؤهم على المسلمين بصورة تثير غيظ الحليم!!.

وإنا هنا - فى مصر - مثلاً - لنحفظ ونذكر خطبة أخيه عتبة بن أبى سفيان الذى ولاه أمره بعد موت "عمرو بن العاص" إذ استهلّ حكمه وولايته بأن جمع أهل مصر الطيبين الوُدعاء، وقام فيهم خطيبًا بهذه القوارع:

"يا حاملى الآثام أنف رُكّب بين أعين..!!

إنى إنما فلّمت أظافرى عنكم؛ لبلس محسنًا لكم، فأما إذْ أبيتم إلا الطعن على السلطان، فوالله لأطعَنن بطون السبط على ظهوركم.. فإن حسّمتْ أدواءكم، وإلا فالسيف من ورائكم يا أهل مصر. قد كنتم تُعذرون ببعض المنع منكم لبعض الحوْز علىكم وقد ولِيكم من إذا قال فعل. فإن أبيتم درأكم بيده، فإن أبيتم درأكم بسيفه.

إن البيعة شائعة.. لنا علىكم السمع، ولكم علينا العدل"..!!

* * *

إن للسلطة ضراوة لا تقوم، إذا هى بسطت إغراءها وبنودها على الحكم برى فيها غُنْمًا لا تضحية.. وزهْوا لا واجبًا..

ونحن لا نريد الطعن في معاويه؛ فإن منهجنا أن نحترم كل الاحترام، مَن صحِبَ رسول الله ﷺ وصلى وراءه.. وجلس بين يديه.. وقاتل تحت لوائه.. مفوِّضين أمره فيما يكون له من حظٍّ إلى الله..

بيد أنا خلال قيامنا بواجبنا في تحرِّي الحقيقة في هذه القضية التي ندرسها، لا نملك إلا إبداء الأسف الشديد، والجزع لا شد لهذا النهج الذي سار عليه مؤسس دولة الأمويين. لا سيما حين اتخذ أفدح قراراته، وأكثرها ضراوة وبؤسًا.. ذلكم هو أخذ البيعة لولده - يزيد - وفرضه على الدولة المسلمة وعلى الأمة المسلمة، الأمر الذي يعنينا الآن بحثه، والذي كان السبب المباشر والأوحد في مأساة "كربلاء". وفيما تلا "كربلاء" من أهوال شهدتها مكة وشهدتها المدينة على نحو أليم وويل. هذه الأحداث التي كانت هي الأخرى سببًا مباشرًا في ضياع الملك من بيت معاويه وذريته إلى الأبد بعد أربع سنوات من وفاته، ثم انتقال هذا الملك إلى بطن من بطون بني أمية، أولئك هم بنو مروان..

لقد اهتزت أعطاف "معاوية" بالإمارة والملك، أربعين عامًا كاملة.. عشرين عامًا، أميرًا.. وعشرين عامًا، ملِكًا..

أفما كان يكفيه ذلك، ثم يترك الأمر من بعده لاختيار المسلمين، ليكون في ذلك على الأقل وفاء بالعهد الذي أبرمه مع "الحسن" رضي الله عنه والذي كان أهم شروطه للتنازل له عن الخلافة. ؟؟

إن ذلك لم يحدث.. ولقد فرَّ معاويه بتدبير منه، أو بإيحاء من بعض مُشيريه، أو بهما معًا، أن يستقي السلطان في بيته وأسرته،

واختار لذلك أبعد الناس عن الصلاحية للأمر ولده "يزيد"..

فحين أحس خمود صحته، ودنو نهايته، شرع على عجل يفرض - يزيد - على الناس ويهيئ له مكانه..

ويبدأ بالمدينة حيث كان بها نفرٌ جليل من بقية الصحابة.

ولم يكد واليه عليها وقريبه في نفس الوقت - مروان بن الحكم - يعرض الأمر على المسلمين الذين احتشدوا في المسجد الكبير، حتى جابهته معارضة رهيبة، لقد وقف "عبد الرحمن بن أبي بكر" رضي الله عنه يقول لمروان:

"والله، ما اختارَ أرذلكم لأمة محمد.. ولكنكم تريدون أن تجعلوها هِرَقليّة، كلما مات هِرَقل قام هِرَقْل..".

وتلاه "الحسين" رضي الله عنه فرفض في كلماتٍ قواطع هذا العبث بمصاير الإسلام والمسلمين.

وتلاه "عبد الله بن الزبير" رضي الله عنه فدمدم على مروان وعلى معاوية بكلمات كألسنة اللهب..!!

وأبلغ أمر المعارضة إلى معاوية، فلم يحمله ذلك على إعادة النظر في قراره، بل دفعه إلى الإعجال في سرعة بحثه.

فأرسل إلى ولاته الآخرين على بقية الأمصار، آمرًا إياهم أن يسوقوا الوفود إلى الشام كي تبايع ليزيد..

وشهدت الشام مهزلة البيعة ومآسيها على نطاق واسع، بعد أن أدّى الذهب والسيف دورهما في حمل الناس على البيعة.

ولكن موقف "المدينة" ظلّ يؤرقه، فقرر السفر بشخصه إليها.

وهناك حاول إقناع زعماء المعارضة - عبد الله بن الزبير، والحسين بن علي، وعبد الله بن عمر، فلما أعيته الحيلة لجأ إلى القسوة في مظاهرة مسلحة عجيبة..!!

لكن الزعماء الثلاثة صمدوا، ولم يتحرك منهم لسان ببيعة.. وأدرك معاوية الموت التي فاجأهم بها معاوية، لاذوا بالصمت، فستعرُ هو صمتهم وأداع في الناس أنهم مبايعون..!!

لقد برَّر معاوية أخذه البيعة ليزيد بحرصه على عدم نشوب الخلاف والصراع من جديد بين المسلمين..

وإنه لتبرير يُدينه أكثر مما يشفع له..!!

فلماذا خشي الصراع والفتنة إذا هو لم ينقل الملك إلى يزيد، ولم يخشهما إذا هو وسَّد الأمر لغير أهله وسلَّم قيادة الدولة المسلمة إلى أكثر العالمين بُعداً عن الصلاحية لها، وهو يزيد..؟؟!!

إن هذه النظرة تكشف بوضوح عن أن معاوية كان ينظر إلى الأمر على أنه - كما فعل من قبل - سلطان بني أمية - أكثر مما هو سلطان الإسلام وسلطان المسلمين..!!

ووضع المسألة على هذا النحو - وهو وضع صحيح - يجعل المقاومة أمراً محتوماً وقدراً مقدوراً..

ولقد بدأت المقاومة بموقف "الحسين" وابن الزبير، وابن عمر، وابن أبي بكر، بالمدينة عن البيعة..

وبدأت بالتذمُّر الكالح الذي ملأ صفوف الجماهير في كل مكان والذي ارتفع به الصوت داخل الأمويين أنفسهم الذين كانوا يشمئزون من يزيد، ويرون بين رجالهم من هو أحق وأجدر. كذلك شاع على

ألسنة الذين بايعوا من عامّة الناس مُكرهين..

ذلك أن "يزيد" كان شابًا عابثًا لاهيًا. والتاريخ يصوره دائما بين بطانته، وهي بطانة سوء، يلهون، ويشربون، ويعربدون..

وحتى حين أراد أن يُصفي على سيرته بعض التصوّن والوقار، فأرسله إلى مكة حاجًا، ولم يعنه ذلك شيئا، فقد اصطحب يزيد معه لهوه وعبثه وبطانته..!!

ويزيد، قبل هذا، وبعد هذا، تنقصه كل مقومات الرجل المناسب للمكان المناسب.. فهو مُفلس إفلاسًا تامًّا من كل ما كان لأبيه من دهاء، وشخصية، وذكاء، ومقدرة..!

فقيم استخلافه..؟ وبأي رشد وأي ضمير، يُفرض واحد هذا شأنه على الإسلام وعلى المسلمين.؟!

ثم أين عهده مع "الحسن" رضي الله عنه على أن يترك الأمر بعده شورى، حيث يختار الناس من يرتضونه.؟!

لكنَّ معاوية فعلها ـ غفر الله لمعاوية..

وفي العام الستين للهجرة مات، ينتقل الأمر من بعده إلى يزيد.

وبدأ يزيد عهده بإنفاذ الوصية التي تركها له أبوه قبيل وفاته:

"إني لا أخاف عليك سوى أربعة رجال:

الحسين بن علي.. وعبد الله بن عمر.. وعبد الرحمن بن أبي بكر.. وعبد الله بن الزبير..

فأما الحسين بن علي؛ فإن أهل العراق لن يتركوه حتى يخرجوه إليهم؛ فإن فعل فظفرت به فاصفح عنه.

وأما عبد الله بن عمر، فرجلٌ قد وقَّذته العبادة، ولا يريد الخلافة إلا أن تأتيه عفواً..

وأما عبد الرحمن بن أبي بكر، فليس له عند الناس ما يجعله يطمح إلى طلبها، أو يُحاول التماسها إلا أن تأتيه عفواً.

وأما الذي سيحْتُم لك جُثوم الأسد، ويُراوغك روغان الثعلب، حتى إذا أمكنته فرصة وثب عليك؛ فذلك هو عبد الله بن الزبير. فإن فعل وظفرت به فقطعه إربًا إربًا، إلا أن يلتمس منك صُلحًا.. فإن فعل فاقبل منه، واحقن دماء قومك بجهدك.. وكُفَّ عاديتهم بنوالك.. وتغمَّدهم بحلمك..

تُرى، هل كان معاوية يعرف لابنه هذا جهدًا، أو نوالاً، أو حلمًا يُعالج به الأمور..؟؟

على أية حال، فقد جلس يزيد حيث كان يجلس أبوه من قبل، وسيق الناس إليه يبايعونه مَلِكًا، بعد أن بايعوه من قبل أميرًا..

واهتزَّ كيانُه فزعًا، تحت ضغط مشاعره الوجلة لوجود الحسين وابن الزبير وابن أبي بكر وابن عمر بالمدينة، فكتب على الفور إلى عامله هناك - الوليد بن عتبة بن أبي سفيان - بهذا الأمر الحاسم:

".. أما بعد، فخُذْ حسينًا، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن أبي بكر بالبيعة أخذًا شديدًا، ليس فيه رخصة حتى يبايعوا، والسلام"..

واستنجد الوليد بمشورة قريبه مروان، وكان مروان واليًا على المدينة من قبل، ثم سخط قرار معاوية أخذه البيعة ليزيد، إذ كان يرى

نفسه بحكم سنه ومشيخته فى بنى أميه أحق بها وأولى.

ولخّص مروان مشورته للوليد فى هذه الكلمات السوداء: .. أما ابن عمر، وابن أبى بكر، فلا أرهما بريان المال. ولكن علىك بالحسين وعبد الله بن الزبير؛ إليهما فإن بايعا، وإلا فاضرب أعناقهما قبل أن يذيع فى الناس نبأ موت معاوية؛ فتثب كل واحد منهما فى ناحية"..!

هكذا، وبكل بساطة وتهتار يُطوِّح مروان بالرقاب!!

اضرب أعناقهما..!!

هذا هو نهج الذين اغتصبوا حق المسلمين فى خلافتهم، وأرادوا أن يجعلوه وقفًا على أنفسهم وعلى ذراريهم حتى آخر طفل فيهم وآخر رضيع..!!

ومروان هذا، الذى يُشير بقطع الرقاب، هو الذى سينقل إليه الملك بعد أربعة أعوام من مُلك يزيد.. وهو الذى سيظل الملك فى عَقِبه حتى يجىء العباسيون بعد عشرات من السنين، لا يرى فيها وفى كل أولئك الحاكمين من هو بالقدر أهل سوى "عمر بن عبد العزيز" رضى الله عنه وأرضاه. هذا الخليفة العادل الذى سيضجّ من مظالم قومه وعائلته، ويبرأ إلى الله منها..!!

ويعود إلى الوليد بن عتبة والى المدينة، فيراه يرسل فى طلب "الحسين" و"ابن الزبير"..

وفى طريقهما إليه يسأل ابنُ الزبير الحسين:

- تُرى فى أىّ أمر بعث إلينا هذه الساعة..؟

ويجيبه الحسين:

ـ أحسب أن معاوية قد مات. وقد بعث إلينا للبيعة !

ويعودان أدراجهما دون أن يواصلا السير إلى الوليد.

فأما "عبد الله بن الزبير" فقد انتظر مجيء الليل، ثم حمل متاعه، وركب راحلته، وسافر إلى مكة..

وأما الحسين، فيأخذ نفراً من أتباعه، ويسير بهم إلى الوليد في دار الإمارة، ويأمرهم أن ينتظروه خارج الدار، فإن سمعوا حواراً غاضباً بينه وبين الأمير اقتحموا الدار ليكونوا بجانب الحسين إذا أريد به السوء.

بيد أن الوليد في هذا الموقف كان خيراً من ألف من طراز مروان..

ذلك أنه لم يكد ينتهي إلى "الحسين" نبأ وفاة معاوية، داعيًا إياه إلى بيعة يزيد، حتى قال له "الحسين" رضي الله عنه:

"إن مثلي لا يعطي بيعته سراً، فاجمع الناس لبيعتنا، وأبايع على ملأ"..

ولا نستبعد أن يكون الوليد، قد أدرك ما في كلمات الحسين من مناورة شريفة، آثر أن يتغافل عنها، حتى لا يلوث يديه بجريمة العدوان الذي أشار به مروان.

لذلك نراه، حين أصبح في اليوم التالي، وجاءه الخبر بأن الحسين رحل إلى مكة.. ولامه مروان على نبذ مشورته.. نراه يقول يومها لمروان:

"أتشير عليّ بقتل الحسين بن فاطمة بنت رسول الله؟؟ والله، إن الذي يحاسب بدم الحسين يوم القيامة لخفيف الميزان

عند الله" .!!

* * *

رحل الحسين إلى مكة.. ذلك البلد الحرام الذى يلتمس الناس فيه الأمْن والملاذ.

واصطحب معه أخيه "السيدة زينب، والسيدة أم كلثوم" وإخوته "أبو بكر، والعباس، وجعفر" وأولاد أخيه "الحسن" وجميع مَن كان بالمدينة من أهل بيته، عدا أخاه "محمد بن الحنفية" الذى آثر البقاء بالمدينة.

وكان قد سبقه إلى مكة كما ذكرنا، عبد الله بن الزبير.

كذلك كان قد سبقه إليها حَبْرُ الأمة "عبد الله بن عباس".

وفى مكة، استقر الحسين وآله.. وأقبل أهلها بل وأقبل الوفود من خارجها على ابن بنت رسول الله ﷺ يلتمس منه الحكمة والهدى والنور.

ولقد كانت مكة آنذ أنسب مكان يدبر فيه "الحسين" خواطره وتفكيره حول القضية الجليلة التى تشغله، والوضع الخطير الذى حاق بالمسلمين..

فيها.. وفى قديم الزمان، كان هاشم، وعبد شمس، أخوان وُلدا لعبد مناف. ومِن هاشم، جاء النبى ﷺ، وعلىّ، وبنو هاشم أجمعون.

ومن عبد شمس، جاء أمية، وأبو سفيان، ومعاوية، ويزيد، وبنو أميّة كافّة..

وها. كان هاشم يملأ مكة والجزيرة براً ومحداً وكرمًا، فهو الذى

يطعم الحجيج، ويحمي الديار، ويرسل قوافله إلى الشام وإلى اليمن لتعود موقرة بالخير والرزق للناس، حتى قال فيه شعراء قريش يومئذ:

عَمْرو الذي هشم الثريد لقومه
قوم بمكة مسنتين عجاف
سَنَّتْ إليه الرحلتان كلاهما
سفرُ الشتاء ورحلةُ الأصياف

بينما عبد شمس مُزمعٌ أسفرٍ دائمًا لا يحمل نحاه قومه ما يجب من تبعات..

وهنا.. شهدت مكة ذات يوم أروع منحراتها الأخلاقية والسياسية يوم أقرَّت كل قبائلها "حِلْف الفضول" ذلك الحلف كان مضمونه وفحواه أن تُردَّ الحقوق إلى أهلها، وألاَّ يستصر ظالم على مظلوم، وأن يصحَّي المشركون فيه بحيالهم إذا تعرضت العدالة لخطر.!!

ومن عجب أن كل قبائل قريش وبطونها، اشتركت بومئذ في هذا الحلف ماعدا بني عبد شمس آباء الأمويين..!!

وهنا يستطيع "الحسين" أن يمد بصره فيرى الدار التي عاش فيها ويرَع منها جَدّه العظيم "محمد رسول الله ﷺ" هاتفًا بكلمة الله، حاملاً مِعْوله الرشيد في وجه وثنيَّة الحجَر.. ووثنية البشر.!!

ويستطيع أن يُمدَّ بصره، فيرى "زمزم" التي حفرها جده "المطَّلب" امتثالاً لرؤيا صادقة، والتي كانت لقريش حياة وريًّا، وصارت للمسلمين تُراثًا ومَنْسكًا..

ويستطيع أن يمد بصره فيرى الدُّور التي خرج منها مهدبون أبرار، آمنوا بالرسول ﷺ وآزروه في دعوته ووحدانيته، وفي مقدمتها دار أبي

بكر.. ثم يرى الدّور التى خرج منه أولئك الذين سَخِروا من دعوته، واضطهدوا أهله وصحبه، وفى مقدمتها دار أبى سفيان..!

وهنا.. يستطيع أن يرى ويسمع الأصداء الصادقة الباهرة لصوت جده "أبى طالب" وهو يقول للرسول:

"يا ابن أخى، ادْعُ إلى سبيل ربك ما شئت، فوالله لا أسلِمُك إليهم أبداً..".

ثم يقف إلى جواره كالطَّوْد مضحِّيًا براحته، وأمْنه ومكانته بين قومه..

كما يسمع الأصداء الصادقة الباهرة لصوت جدّته "خديجة" وهى تقول للرسول:

"والله لا يُخزيك الله أبداً"..

ثم تنهض إلى جواره فى وجه قريش واضعةً كل ثروتها وجاهها فى خدمة الدين الحق الجديد..

وهنا.. يسمع الحسين بكل سمعه وقلبه كلمات جده الرسول الكريم ﷺ التى تركها للتاريخ الإنسانى بأسره قدوة وميراثًا وهُدىً:

"... والله، لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى، على أن أترك هذا الأمر، ما تركته حتى يقضيه الله، أو أهلك دونه"..!

أجل.. هنا سيسمع الحسين صَداها.. ويتراءى له المشهد، فيُفجَر فى نفسه بأسها، ونضالها، وتُقاها..!!

ولسوف يسأل نفسه: ما هذا الأمر الذى رفض جدّه النبى ﷺ أن

يتخلى عنه ولو أوتيَ الشمس والقمر وما بينهما..؟؟

ويجيبه قلبه: إنه كلمة الله ودينه.

ويعود يسأل نفسه: وأين دين الله اليوم، ومن الذي يحمل لواءه..؟؟

ويجيبه الواقع: إن دين الله اليوم في محنة، إنه يتحوّل إلى ملك عَضوض. وإن الذي يحمل لواءه اليوم طاغيه عربيد اسمه، يزيد..!!

يعود يسأل نفسه: وما المصير..؟؟

ويُجيبه وَعْيه ورُشده: المصير عودة الحق إلى نصابه وسيادة الوثنية، وذلك ساعة هذه الأمة حيث يرجع كل ما بنتْ وشادت تراباً في تراب..!!

ألم يقل جدك الرسول عليه السلام:

"إذا وُسِّد الأمر لغير أهله، فانتظر الساعة"

فها هو ذا قد وُسِّد لغير أهله، بل لشر أهله".

ويعود سائلاً نفسه: وما واجبي الآن؟.

ويجيبه ضميره: المقاومة، الآن، وأبداً.. حتى يفور الحق، أو تهلكَ دونه..!!

على هذا النحو لابد أن يكون "الحسين" قد أدار خواطره وتفكيره.

وفي رأينا أن كل حوافز الثورة على هذا الضلال كانت كامنة في وعيه ووجدانه، وكان وليده إدراكه السديد لحق الذي عليه واستعداده للتضحية في سبيله.

وليست نتيجةُ لموقف أهل الكوفة الذين أرسلوا إليه كُتبهم ووفودهم يدعونه إليها ليبايعوه، وليسيروا بحب لوائه إلى مقاومة يزيد.

أجل . ما كان "الحسين" ليدع دين الله ودنيا الناس ألعوبة في يد يزيد..

بل كان سيبشر بالمقاومة، ويخلق ظروفها المواتية، ثم يضرب ضربته العادلة.

وسواء دعاه أهل الكوفة أم لم يدعوه، فلقد كان يهتدي إلى مسئولياته بنور إيمانه وبصوت ضميره.. وليس بتحريض قوة خارجية.

ولقد عرف رأيه القديم في صلح أخيه مع معاوية.. إذ كان يعارض هذا الصلح، معلنًا أن آل أبي سفيان لا عهد لهم ولا أمان.

فإذا كان هذا رأيه والخليفة بالأمس معاوية، فكيف يكون إذن والمستخلفُ اليوم يزيد..؟!

ثم إن خروجه من المدينة إلى مكة، ورفضه البيعة ليزيد يُشكلان إعلانًا لمبدأ المقاومة.

فهو يعلم أن يزيد لن يتركه حتى يبايع. وهو لن يبايع أبدًا . وإذا سيكون المجابهة بينهما أمرًا محتومًا.

ثم إن للحسين طبيعة جيّاشة ثائرة، تربطها بالحق ولاءً وثيق وعجيب، وتستمد من فضائل الدين الغالية، ومن تراث حسّبه العريق زادًا لا يفنى من الصمود والمثابرة!!

ولن تجد في كيانه ذرّة تصبر على رؤية يزيد بن معاوية يجلس حيث جلس من قبل - أبو بكر - وعمر - وعثمان - وعلي.!!

ان ذلك يَعني ضيّاعَ مقدّسات عزيزة وغالية

إذا كانت الطبول تدق في دمشق، معلنة قيام خلافة كاذبة لحفيد أبي سفيان..

فلابد أن يجد الإسلام من يدفع عنه الكارثة..
ولابد أن يجد المسلمون من يدرأ عنهم الطوفان..!!

الفصل الخامس

# البطـــــــــل يتقـــــــــدم

تلك هى القضية تماما..

وهذه حقيقتها التى تجلّـت أمـام الحســن كفلـق الصبـاح.. فهى ليست لغزاً، يحتاج إلى مناقشات تبحث له عن حلول.

ولا صفقة، ترتبط اهتماماتها بمغنم أو مَغرم

كما أنها ليست طموحا شخصياً، يحتـاج إلـى موازنـه بيـن فـرص النجاح واحتمالات الإخفاق.

إنها قضية الحق وحده..

حقّ دين، وحق أمة، وحق دولة، وحق مصير وإمـا أن ينصـر هـذا الحق، أو فليمُت الأبرار دونه..

ومن لسادة الأبرار فى هذا المجال، كأبى عبد الله الحســن. خـير ابن لخير آباء. وأكرم وارث لبيت الضحية والبذل والفداء..؟!

إن ملايين المسلمين فى كل العصور والأزمان، يصلـون عليـه فـى صلواتهم آناء الليل وأطراف النهار.

ألس كل مسلم كان أو سيكون، يختم صلاته قائلاً

"التحيّات المباركات والصلوات الطيبات لله

السلام عليك أيها النبي، ورحمة الله وبركاته

السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين..

أشهد ألا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله

اللهم صَلِّ على محمد، وعلى آل محمد"..

وأليس الحسين من أولئك الآل؟

أليسَ هو درّتهم الفريدة والمجيدة.؟

إذن، فإن لهؤلاء الذين يصلون عليه عشرَ المرات والأجدر حقًا عظيمٌ سيقتضيه تضحيات عظيمة.!!

ومتى تكون التضحية، إذا لم تكن اليوم، ودين المسلمين يتحول إلى "مرجعة أموية". وأمجادهم العظيمة يتسولى عليها محموق عابث ومصايرهم الكبرى تُمسِك بها أيدي وُصوليين جُباة، وجلادين طغاة..؟!

هكذا لم يكن للحسين بد من أن يقاوم، حتى لو لم يدعه من العراق داع، ولم يأته من الكوفة كتاب.. كل ما صَنعته وفود الكوفة وكُتبها له، أنها عجّلتْ خروجه.

وهنا، لابد أن نقف عن تفكيرنا وهمّ ردّده كثيرون، هو أن "الحسين" رضي الله عنه ذهب ضحية خدعة لم يحسن تدبُّرها.. أو ضحية أنصار لم يُحسن تقدير إخلاصهم وثباتهم.!

كلا، إن "الحسين" بما ذهب شهيد إيمان قرّر مختارًا ومشتاقًا أن يكون شهيده وقُربانه..!!

والآن ونحن نواجه الوقائع والأحداث، سنرى كم كان في تصميمه وبطولته حكيمًا، وكيف خطّط لواجبه ومسئولياته في رُشد، ونُهىً وسَداد..

* * *

فعندما جاءته كُتب أهل الكوفة تدعوه إلى القدوم عليهم لمبايعته،ولدفع العار الذي لحق الأمة بانسحاب يزيد، لم يُسارع بامتطاء راحلته.. بل رأى أن يبعث إليهم مبعوثًا خاصًا وأمينًا يرى الموقف هناك على طبيعته، ثم يوافيه بالأنباء..

واختار للمهمة ابن عمه "مسلم بن عقيل بن أبي طالب" وحمَّله إلى الكوفة هذه الرسالة:

"بسم الله الرحمن الرحيم

من الحسين بن علي، إلى مَن يبلغه كتابي هذا، من أوليائه وشيعته بالكوفة.

سلام الله عليكم..

أما بعد، فقد أنسى كُتبكم، وفهمت ما ذكرتم من محبتكم ورغبتكم في قدومي إليكم.

وإني باعثٌ إليكم بأخي وابن عمي وثقتي من أهلي "مسلم بن عقيل" ليعلمني كُنْهَ أمركم، ويكتب إليَّ بما يتبين من جمعكم.. فإن ملأ أمركم على ما جاءتني به كتبكم وأخبرتني رسُلكم؛ أسرعت القدوم إليكم إن شاء الله تعالى"

ومضى "مسلم" إلى الكوفة.. ولم يكد يستقر بها حتى سارع الناس

إليه يبايعونه على السمع تحت لواء "الحسين" مهما تكن التضحيات.

وسرع جواسيس يزيد إلى "النعمان بن بشير" والي الكوفة وحاكمها يطلعونه على ما يدور ويجري.

وكان "النعمان" رضي الله عنه صحابيًا جليلاً، فرد جواسيس يزيد خائبين، إذ قال لهم:

"إني لا أقاتل إلا من قاتلني.. ولا أثب إلا على من يثب عليّ، ولا آخذ بالظنة أحدًا".

وأجابه أحدهم قائلا: "هذا رأي المستضعفين".. فزجره النعمان قائلا:

"لأن أكون من المستضعفين في طاعة الله.. خير من أن أكون من الجبارين في معصيته"..!!

وانصرفوا من حضرة النعمان يائسين، ليكتبوا إلى سيدهم يزيد يخبرونه أن "مسلم بن عقيل" استولى على أفئدة الناس، وأن "النعمان بن بشير" لا يُحرك ساكنًا.

وفي دمشق اجتمع يزيد مع مستشاريه.. وكان أبرزهم ذلك الذي يُسمَّى "سرجون".

تُرى بم يشير مَجوسي كسرجون..؟؟

أشار بعزل "النعمان بن بشير" وتولية عبد الله بن زياد والي البصرة، واليًا على الكوفة أيضًا.

ولم يكن عجبًا أن يقع اختيار سرجون على ابن زياد بالذات، ذلك أن "مرجانة" أم بن زياد، كانت هي الأخرى جارية مَجوسيَّة. ؟؟!!

وابن زياد هذا، من أحط وأشقى من حملت الأرض على ظهرها لا يفوق ولعه بالقتل وسفك الدماء، سوى ولعه بالقتل وسفك الدماء

في نفس الوقت، كان الحسين عليه السلام، قد أرسل مولاه "سليمان" إلى البصرة حاملاً هذه الرسالة إلى نفر من زعمائها:

"بسم الله الرحمن الرحيم

من الحسين بن علي.. إلى مالك بن مسمع، والأحنف بن قيس، ومسعود بن عمرو، وقيس بن الهيثم، والمنذر بن الجارود..

سلام الله عليكم..

أما بعد؛ فإني أدعوكم إلى إحياء معالم الحق، وإماتة البدعة والباطل؛ فإن تجيبوا تهتدوا سُبُل الرشاد"..

إن رسالة "الحسين" إلى أهل البصرة، ترينا كيف كان يعرف مسئوليته ويمضي معها.. فأهل البصرة لم يكتبوا إليه ولم يدعوه إلى بلدهم كما فعل أهل الكوفة.. ومع هذا فهو يكتب إليهم ويُعدّهم للمجابهة المحتومة ـ ذلك أنه قرر أن ينهض بتبعات دينه وأمته، كان قراره هذا آتياً من أعماق روحه وضميره، وليس من حركة أهل الكوفة ودعوتهم إياه.

* * *

لم يكد مبعوثه "سليمان" يصل البصرة، ويسلّم رسالته لزعمائها، حتى سارع أحدهم وهو المنذر بن الجارود إلى ابن زياد حيث أفشى له سِرّها وأطلعه عليها.. وألقى ابن زياد القبض على "رسول الحسين" وفي وحشية تليق به، قام بقتله وصلبه.. ثم تهيأ للسفر إلى الكوفة، ليباشر مهمته المجرمة هناك!!

وقبل رحيله، دعا أهل البصره إلى اجتماع عام خطبهم فيه فقال.

"يا أهل البصره.. إن أمير المؤمنين يريدا! قد ولاّني مع البصرة الكوفة، وإني سائر إليها، وقد خلّفت عليكم أخي عثمان بن زيد.. فإياكم والخلاف والإرجاف. فوالله لئن بلغني عن أحد أنه خالف أو أرجف، فلأقتلنه ووليه، ولآخذن الأدنى بالأقصى. والبريء بالمذنب، حتى تستقيموا أنا ابن زياد.. وقد أعْذَرَ من أنذر"..!

هكذا تحدث إلى الناس بالبصرة حديث الطاغية.. على أن التجربة تعلمنا أنه ليس هناك أجبن من الطغاة.. وأن ما يتظاهرون به من بأس شرس وشجاعة رائعة، إنما يستمدونه مما يمسكون بأيديهم من سلطان..!!

فابن زياد هكذا، بكل طغيانه، وفسوقه، وإجرامه، يخاف أن يدخل الكوفة سافراً منظوراً، فيدخلها منكراً، ومتخفياً سحنته ووجهه وراء لثام وقناع..!

ومن المفارقات البسمة، أن أهل الكوفة الذين كانوا ينتظرون مقدم "الحسين" على شوق، لم يكادوا يرون قافلة ابن زياد، حتى حسبوها موكب "الحسين" فراحوا يفسحون له الطريق هاتفين:

"مرحبًا بابن رسول الله ﷺ .. قدمتَ خير مقدم"..!!

ولئن كانت هذه الحفاوة بالحسين قد ملأت نفس ابن زياد مرارة وحقداً، إلا أنها ألقتْ على قلبه الجبان كثيراً من الأمن، إذ اطمأن أنهم لم يعرفوه، وبالتالي لن يصلوا إليه بسوء

وحين بلغ دار الإمارة، واحتمى بشرطتها وحرسها، راح ينصب شباكه ليقتنص رسول الحسين وابن عمه "مسلم بن عقيل" الذي كان

يمارس نشاطه الحلل في همةٍ موفَّقة وناجحة.

* * *

كان عزل "النعمان بن بشير" عن الكوفة، وتولية ابن زياد مكانه نذيرًا رهيبًا لمسلم بن عقيل. فبعد أن كان يجتمع بالناس في غير تحرج ولا تخوف، راح يغيِّر مقره، فتنقل إلى دار أخرى، ويحيط نشاطه بكتمان كبير.

كانت الدار الجديدة التي انتقل إليها هي دار "هانئ بن عروة" من صفوة أهل الكوفة وأشرافهم.

وكان ابن زياد قد اصطحب معه من البصرة بعض صفوتها وزعمائها، ومن بينهم "شريك بن الأعور".. وكان "شريك" شيعيًا يكتم إيمانه وولاءه، كذلك كان صديقًا لـ "هانئ بن عروة" الذي يتخفَّى "مسلم بن عقيل" في داره.

ورغب "هانئ" إلى صديقه "شريك" أن ينزل عليه ضيفًا في داره فقبل دعوته، حيث التقى فيها بمسلم بن عقيل فبارك جهوده وجهاده وحثَّه على المثابرة.

وهنا نلتقي بصورة من عظمة آل البيت وأخلاقهم وشرفهم في النضال والقتال ذلك أن "شريك بن الأعور" مرض وخف ابن زياد لعيادته حيث هو في دار هانئ..

ورأها "شريك" نفسُه فرصة سانحة للإجهاز عليه والتخلص منه.

فاتفق مع "مسلم بن عقيل" أن يفاجئ ابن زياد عندما يجيء إليه، ويضربه بسيفه ضربة تُريح منه البلاد والعباد.

ولكن ابن زياد جاء، وجلس، وطالت جلسته، ثم غادر الدار دون

أن يناله سوء..

وبعد انصرافه عانق "شريك" "مسلمًا" وسأله: لماذا لم نُنجز ما اتفقنا عليه وتتقرب إلى الله بقتله؟ فأجابه "مسلم":

"لقد منعني من ذلك أمران أولهما كراهية هانئ أن يُقتل في داره. وثانيهما: أن رسول الله ﷺ نهاه عن الغيلة، وقال: لا يقتلك مؤمن"..!!

هذا هو الخلق الشريف الذي يتفضل به أهل البيت الكرام!!

أما "مسلم" فقد واصل أخذ البيعة سرًا حتى بايعه ثمانية عشر ألفًا.

وآنئذ، وأمام تلك الأعداد الكثيرة من الأنصار والمبايعين، أرسل "مسلم" إلى "الإمام الحسين" يبشره بما تم، ويدعوه للقدوم..

وآنئذ أيضًا، كان ابن زياد قد خَوَّن حيرته لإخفاقه في القبض على "مسلم" وفشل شرطته في معرفة مكانه، هنالك لجأ إلى حيله الخشنة، فاختار واحدًا من موالية، واسمه - معقل التميمي - وأعطاه صرة بها ثلاثة آلاف درهم، وأمره أن يجوب خلال الكوفة، منجردًا من نفسه شخصًا غير شخصه.. زاعمًا ومظاهرًا بأنه واحد من شيعة "الحسين" يريد أن يأخذ مكانه بين صفوف أنصاره، ويريد أن يُسهم بما معه من مال في شراء سلاح لأولئك الأنصار!!

وبعد طوال تطواف، وطول تحسس، هدى الجاسوس إلى صالته المنشودة، فقد تعرف إلى رجل صالح من أصحاب "مسلم" فدله أخيرًا إلى مكانه ومقره.

وأنفق الخبيث دوره حتى خُدِعوا به جميعًا، وأصبح "شرًا" لدبهم،

يزور "مسلما" كل يوم حيث يمضي معه النهار كلـه. ثم يمضي الليـل بأجمعه مع ابن زياد، نافلاً إليه الأخبار والأسرار.

وحين تمكّن ابن زياد من قصه الخبيـث، أرسل في طلـب "هـانئ" وفاجأه قائلا: "إيه يا هانئ بن عروه، ما هذه الأمور التي تحدث في دارك لأمير المؤمنين (!!)، حتى تسلم بن عقيل وأدخلته دارك وجمعت له السلاح والرجال، وظننت أن ذلك يخفى عنى"

كانت المفاجأة أليمة الوقع على هانئ. فرأى أن يخدع ابـن زيـاد بالإنكار ريثما يستعد لمجابهته التي أصبحت فورتُها محتومة.

لكن ابن زياد أذهله بمفاجأتـه الثانيـه، فدعـا جاسوسه - معقـلا - الذي انتصب أمام هانئ "كجبل الشاء طويلا باردا وسأله ابـن زيـاد أتعرف هذا؟ وسقط في يد هانئ وأدرك كل شيء.. وسرعان ما سـيطرت رجولته على الموقف في لحظة، وصاح بابن زياد.

"أجل أعرفه..

وإن "مسلما" في داري، وهو ضيفي، ولن أسلمه أبداً"!!

وجُن جنون الطاغيه، فدعى جلاّديه وأمرهم أن ينزلوا به كل عذاب دون القتل حتى لا يستريح بالموت!!

وباشره المجرمون، يكسرون أنفه، ويمرغون لحم وجهه، ويهشمون عظامه، وهو صابر مُحتسب..!!

ولما شفى ابن زياد نفسه المظمئة بتعذيبه، أمرهـم أن يخرجـوا بـه إلى السوق ويضربوا عنقه.

وطار خبر مصرعه واستشهاده إلى "مسلم بن عقيـل" فجمـع رجالـه وأنصاره، وسار بهم إلى قصر الإمارة حيث ضربوا حوله حصاراً رهيبًا

لماذا لم يضرب "مسلم" ضربته من فوره..؟

لماذا لم يقتحم القصر على ابن زياد، وقد كان معه ساعتئذ من الأنصار المسلمين أضعافُ الحرس الذين يحرسون الطاغية؟؟

لماذا لم تشتعل تلك الثورة العارمة التي كانت تشتعل في أنفس الناس نقمة وغضبًا لمقتل "هانئ بن عروة"..؟؟

هناء يبحو ابن زياد مره أخرى من قتل مُحقّق بسبب أناة "مسلم" وفضائله!!

فـ "مسلم" يعلم أن الإمام الحسين "بعد أرسله لأحد له البيعة ولم يأذن له بقتال..

وهو حريص على أن يلتزم الحدود التي رسمها له ابن عمه وقائده.

وهكذا قضى اليوم كله مكتفيًا بالحصار الذي ضربه وأحكمه.

بينما قضى ابن زياد ومن معه في القصر يومهم في شحذ الشكاك وإعمال الحيلة، فأوعز إلى بعض زعماء الكوفة وأشرافها الممالئين ليزيد، والذين كانوا معه داخل القصر، على أن يُطِلُّوا على المحاصرين ساعة الغروب، ويخبروهم أن جيش الشام في طريقه إلى الكوفة سيصلها غدًا أو بعد غد. وسيحيل أحياءها قبلي، ودورها تُرابًا.. ففعلوا ما أمرهم به ابن زياد، وأتقنوا عمليه بثّ الرعب في القلوب، ثم نصحوا الثوار أن ينصرفوا على أن تعالج الأمور فيما بعد بالتفاهم والمفاوضة..

وانصرف الثوار - بعضهم صرفه الفزع. وبعضهم صرفه احتمال الوصول إلى تفاهم يحقن الدماء..!!

وفي الصباح انتشر شرطة ابن زياد في طول الكوفة وعرضها باحثين

عن "مسلم بن عقيل" حتى عثروا عليه في إحدى الدور، فقاومهم وحده بسيفه وعزمه، ولكن دون جدوى..

وحُمل إلى الطاغية، حيث وقف أمامه صامتاً ورافضاً أن يُلقي عليه السلام.

وسأله ابن زياد: أتراك ترجو الحياة والبقاء ..؟؟

فأجابه "مسلم":

"إذا كنت تريد قتلي، فدعني أوصِ إلى بعض الذين هنا من قومي"..

أجل.. لم تشغله حياته.. إنما تشغله حياة ابن عمه "الحسين" الذي أرسل إليه من قبل يدعوه للقدوم وهو الآن في طريقه إلى الكوفة!!

كما تشغله ديون اقترضها منذ قدومه، حيث أسهم بها في شراء العتاد والسلاح..!!

وأجابه ابن زياد إلى طلبه، فأمر عمر بن سعد أن يستمع لوصيته.

وأوصاه "مسلم" فقال:

"إن عليَّ بالكوفة ديناً اقترضته، فإذا قتلت فبع سيفي ودرعي، واقضِ من ثمنهما ديني حتى تقضيه عني. وإني قد أرسلت إلى "الحسين" أخبره أن الناس يبايعونه، وأدعوه للقدوم، ولا أراه إلا مقبلاً. فابعث إليه من يردّه ويخبره أن أهل الكوفة لا عهد لهم"..

ثم أسلمه الطاغية لجلاديه، فضربوا عنقه. ثم رموا رأسه الكريم من حالق إلى قارعة الطريق. وأتبعوا الرأس الجسد..

ثم انصرفوا إلى لهوهم ومرحهم، فقد كانت الليلة ليلة العيد!

وفي الصباح صلّى "ابن مرجانه" في المسجد الجامع صلاة عيد الاضحى.. ثم أمر برأس "مسلم بن عقيل" ورأس "هانئ بن عروة" فغرسا في أسنّه الرماح ثم أرسلها إلى الشام، هدية لمن يدعوه أمير المؤمنين..!!

* * *

في الوقت الذي كان رأس "مسلم وهانئ" يقطعان الفيافي من عراق ابن زياد، إلى شام يزيد.. كان "الإمام الحسين" يقطع طريقه من مكة إلى الكوفة، دون أن يعلم بعد، ما وقع بها من أهوال!!.

وكان قبل خروجه قد صمد لمعارضة عانية من بعض أهله وأصحابه الذين حشوا عليه عواقب الخروج.

فهذا "عبد الله بن عباس" رضي الله عنه يجري معه حواراً طويلاً يتوسل إليه خلاله كي يبقى حيث هو.

يقول له "ابن عباس":

"يا ابن عم.. إنه قد أرجف الناس أنك سائر إلى العراق، فمتى ترى أنت صانع؟".

فيجيبه "الحسين":

"إني قد أجمعت السير في أحد يومي هذين إن شاء الله تعالى"

ويعود "ابن عباس" ليقول له:

"إن كانوا قد دعوك إليهم بعد أن عزلوا أميرهم، ونفوا عدوهم، ووطأوا أكناف بلادهم، فسر إليهم. وإن لم يكونوا فعلوا، فإنهم إذن يدعونك لمنعة وقتال. وإن أهل الكوفة لا

عهد لهم، وإنى أخشى عليك الهلاك..

أقم بهذا البلد حيث أنت. وإذا كنت لابد خارجًا، فاذهب إلى اليمن، فإن به حصونًا وشِعابًا، ولأبيك به شيعة"

ويزداد "الحسين" تصميمًا ويقول:

"يا ابن عم.. إنى لأعلم أنك ناصح مُشفِق ولكنى قد عزمت على المسير"..

ويضيق الأرض بابن عباس، وتحتدم أعصابه ويقول للحسين:

"لولا أن يُزرِىَ الناس بى وبك، لشبَّثُ يدى فى رأسك فلا أدعك تذهب..

ولكن إذا كنت لابد سائرًا، فلا تسر بأولادك ونسائك، فإن أخشى أن تُقتل وهم ينظرون إليك كما قُتل عثمان".

وهذا "عبد الله بن عمر" لا يعلم بسيره إلا بعد خروجه، فيمتطى ظهر راحلته، ويقطع الطريق وراءه وثبًا، حتى يلحق به على بعد ثلاثة أيام من مكة.

ويسأله: أين تريد؟

فيجيبه: الكوفة، هذه كُتبُ أهلها وبيعتُهم، وإنى ذاهب إليهم

فيقول له ابن عمر:

"إنى محدِّثك حديثًا..

إن جبريل أتى النبى ﷺ، فخيَّره بين الدنيا والآخرة، فاختار الآخرة ولم يرد الدنيا.. وإنك بُضعة من رسول الله ﷺ. والله ما يَنالها أحد منكم أبدًا، وما صرفها الله عنكم، إلا لذى هو خير لكم"

ولكن "الحسين" لا ينقص عزمه، فيضمه "ابن عمر" إلى صدره ويقبله ويقول وهو يبكي:

"أستودعك الله من قتيل"..!!

كذلك كان "أبو سعيد الخدري" صاحب رسول الله ﷺ قد حاول ثنيه عن عزمه قبل خروجه من مكة، وجلس يقول له

"لقد سمعت أباك يقول وأنا معه بالكوفة: والله لقد مللتهم وأبغضتهم، فما لهم ثبات على أمر ولا صبر على السيف. ومن فاز بهم، فاز بالسهم الأخيب"!!..

كل تلك المحاولات الحريصة على سلامته وحياته لم تلن قناه ولم توهن له عزما.

ذلك أن القضية التي خرج البطل حاملا لواءها، لم تكن قضية شخصية تتعلق بحق له في الخلافة. أو ترجع إلى عداوة شخصية يضمرها ليزيد. كما أنها لم تكن قضية طموح يستحوذ على صاحبه وتدفعه إلى المغامرة التي تستوي فيها احتمال الربح والخسران.

كانت القضية أجلّ، وأسمى، وأعظم..

كانت قضية الإسلام ومصيره، والمسلمين ومصيرهم

وإذا صمت المسلمون جميعهم تجاه هذا الباطل الذي أنكره البعض بلسانه، وينكره الجميع بقلوبهم، فمعنى ذلك أن الإسلام قد كفّ عن إنجاب الرجال..!!

معناه أن المسلمين قد فقدوا أهلية الانتماء لهذا الدين العظيم.

ومعناه أيضًا، أن مصير الإسلام والمسلمين معًا، قد أمسى معلقًا

بالقوة الباطشة، فمن غلب، ركب. ولم يعد للقرآن، ولا للحقيقة سلطان..!!

هذه هي القضية في روْع الحسين..

وبهذا المنطق أصر على الخروج..

ومعنى آخر نبيل، أفصح عنه في حواره مع ابن عباس حين كان يُلح عليه أن يبقى في مكة، فقال له:

"إني أخاف أن تُستباح بسببي"..!!

إنه برفضه مبايعة يزيد، وتصميمه على مقاومته، يرى المجابهة أمرًا محتومًا..

ولم يُرد لهذه المجابهة أن تقع في البلد الحرام، فهو على بينة من سفالة خصومه. وهو يعلم أنهم لن يتورعوا عن هدم المسجد ذاته والكعبة ذاتها إذا اضطرهم القتال لذلك..

ثم إن أهل الكوفة قد دعوه، ووثق دعوتهم بكتاب ابن عمه "مسلم بن عقيل" فقد صار لزامًا عليه وفق اقتناعه بعدالة قضيته أن يسارع إلى تلك الجبهة التي أعدّت نفسها لمناصرته والمقاومة معه

ولكن، ماذا عساه يصنع، حين يعلم أن ابن عمه قُتل.. وأن الناس بايعوه قد لاذوا بالفرار..؟

لن يصنع شيئًا سوى المضي مع عزيمته وعزمه. ذلك أنه لم يخرج ليُحرر نصرًا مضمونًا. بل خرج ليؤكد حق الإسلام في حمايته نفسه من الضلال والإفك، وليُكفّر عن تضحية مجيده عن خطيئة الصمت التي اقترفها الناس طائعين، أو مكرهين..!!!

ولكن بعد ذلك ما يكون!!

إن الذي يعنيه من ناحية الجوهر، هو أن يؤدي ما رآه واجبًا مقدسًا عليه نحو دينه ونحو الحق

والذي يعنيه من ناحية الشكل، ألا يدور المعركة بينه وبين يزيد في مكة فيكون سببًا في استباحة حرمها وقداسها.

"لأن أقتل في أي مكان من الأرض، أحب إلي من أن أقتل هنا، فيُستباح البلد الحرام بسببي"..!!

وهكذا طاف بالبيت الحرام، مؤديًا له التحية التي لم يكن يدري أنها تحية الوداع!!

ثم يصدر القافلة التي انتظمت أهله المباركين من زوجات، وأخوات، وإخوة، وأبناء عمّ، وأبناء إخوة. كما انتظمت نفرًا من أنصاره وصحبه..

ولقد اصطحب معه من أهله كل هذا الجمع؛ لأنهم - غالبًا - تشبثوا بالرحيل معه.. ولأنهم وفق التدبير الذي كان مرسومًا سيقيمون في البيوت التي سيعدّ في الكوفة، قريبين منه ونحت عينه ورعايته. ولأنه أخيرًا - وربما كان هذا أهمّ دواعي اصطحابهم معه - حتى حين يشتبك مع يزيد في قتال، أن ينفتم منه في شخص أهله هؤلاء من زوجات وإخوة وأخوات، فيهاجم مكة، ويستبيحها بينهم، الأمر الذي كان "الحسين" يخشاه دائمًا ويتوقاه..!!

* * *

ومضى البطل إلى غايته..

وأخذت النُّذر تلقاه على طول طريقه. ففي أول الطريق لقيه الفرزدق الشاعر قادمًا من الكوفة.

وسأله "الحسين": "كيف تركت الناس من ورائك"؟

فأجابه الفرزدق: "تركتهم، قلوبهم معك. وسيوفهم مع بني أمية"

إنه تدبير من رجل له بالأمور فطنة وبصر، لكن البطل العظيم لا يريد على أن يتلو الآية الكريمة:

﴿لله الأمر من قبلُ ومن بعد﴾..!!

ويمضي في طريقه.. وبعد أيام يلقاه "عبد الله بن مطيع" قادمًا هو الآخر من العراق، فلا يكاد يرى "الحسين" حتى يعلو وجهه صارخًا وراجيًا أن يعود، قائلا له:

"أنشدكَ الله ألا تذهب للكوفة، فوالله لئن أتيتها لتُقتلن".

فما يزيد على أن يتلوا الآية الكريمة:

﴿قل لن يُصيبنا إلا ما كتبَ الله لنا﴾..!!

ويستأنف السير مع قَدَره وقدرِه..

وبعد مرحلة أخرى من الطريق يلقاه رجل من بني أسد، قدم من الكوفة أيضًا، فيسأله "الإمام" عن أخبارهم.

فيجيبه الرجل: لقد قُتل "مسلم بن عقيل، وهانئ بن عروة"..!!

نبأ يهد الجبال..

ولكن، من هو بإيمانه أقوى من الجبال، ماذا يكون ردُّ فعل هذا النبأ الرهيب لديه..؟

أرسل بصره في الأفق البعيد، ثم قال:

"إنا لله، وإنا إليه راجعون. عند الله نحتسبُ أنفسنا ولا خير في العيش بعد هؤلاء"..!!

إن مصرع "مسلم وهانئ" كان كافيًا لصرف "الحسين" عن غايته، لو أنه كان في موقفه وخروجه إنما يستمد شجاعته، وجسارته من مساندة أهل الكوفة له. وليس من إيمانه، وافتدائه، وضميره

فمعنى قتل "مسلم وهانئ" أن الجبهة كلها قد انهارت، وأن أهل الكوفة - على أحسن الظنون بهم - قد تبوا عاجزين عما كانوا قد جندوا أنفسهم له.

وهذا كاف لكي يلوى "الحسين" زمام قافلته ويعود

لكن تصميمه الوثيق يقوده .. وقدره العظيم كان ينديه ..!!

سار - رضي الله عنه - بقطع الصحراء المسطحة، محدرًا في مشقة وكبد، أعوارها ونحودها ضعائف لفحها الضارب كريح السموم، حتى بلغ مكانًا يدعى "بطن الرمة" فحط رحاله، وضرب خيمه ليستريح ومن معه..

ثم كتب لأهل الكوفة كتابًا يخبرهم أنه في الطريق إليهم، وأعطى الكتاب واحدًا من أصحابه هو: "قيس بن مسهر الصيداوي" وأمره أن يسبقه به إلى الكوفة.

ومضى "قيس" لسبيله.. بيد أنه لم يكد يبلغ القادسية حتى لقيته قوات ابن زياد، فاعتقلته وصحبته معها إلى الكوفة

وهنا نرى مشهدًا بطلا، لرجل بطل!!

فقد أمره ابن زياد أن يشرف على الناس من شرفة قصره، ويلعن "الحسين".. ويعلن على الملأ أنه - حاشاه ثم حاشاه - كذاب وابن كذاب!!

ويظهر "قيس" بالشرفة، ويصعد مع الحرس إلى حيث أراد ابن

مرجانة..

ثم ألقى على الجموع التى جمعوها وحشدوها نظره وابتسامة ثم صاح:

"أيها الناس..

"إن "الحسين بن على" من خير خلق الله، فأجيبوه وانصروه.. وإن الكذاب بن الكذاب، هو عبيد بن زياد، فالعنوه والعنوا أباه"..!!

هل تستطيع كل فصاحة البشر، أن تعلق على هذا الموقف بثناء أو إطراء، أو تمجيد..؟؟!!

كلا!

فلنلق نظرة مُزدريه على ابن زياد؛ لنرى ما آل إليه موقف "قيس" العظيم من خزى وإذلال وسُعار..

لقد جُن كالكلب المسعور، وراح يلعن ويرجُم شياطينه لأسهم أمهلوه حيًا حتى أكمل عبارته القاصمة.

ثم أمرهم أن يُلقوا به حيًا من أعلى سور القصر، فقُذف به، حيث اندقت عظامه وغرُبت حياته..!![1]

لم يعلم "الحسين" بمصير "قيس" بعد..

ولقد استأنف سيره ومسراه حتى انتهى إلى مكان يُدعى - رود - وهناك أبصر فسطاطًا مضروبًا. فسأل عنه فعلم أنه لـ "زهير بن القين" فأرسل "الحسين" فى طلبه، فتثاقل أول الأمر، ثم ذهب إلى لقائه ضَجِرًا..

---

[1] هناك رواية تاريخية أخرى تقول إن صاحب هذا الموقف، هو "عبد الله بن عفير" خال "الحسين" من الرضاعة

وحين التقيا، أسَرَّ "الحسين" إليه حديثًا، لم يكد الرجل يسمعه حتى تهلَّل وجهه، وامتلأ غبطة وبِشرًا..!!

ثم سارع فنقل فسطاطه إلى جوار فسطاط "الحسين" وقال لمن كان معه من أهله "مَن أحبَّ منكم أن يتبعني، وإلاَّ فإنه آخر العهد بيننا". ثم التفت إلى زوجته وقال لها: "أما أنت، فالحقي بأهلك، فإني لا أحب أن يصيبك بسببي سوء"..

وانصرف أقرباؤه عائدين إلى موطنهم، مصطحبين معهم زوجته.

ترى ماذا قال له "الحسين" حين ناجاه..؟!

هل وعَده بمنصب، أو مَغنم..؟؟

لو كان ذلك، ما سرَّح زوجته، ولا قال للذين كانوا معه مُودِّعًا إياهم: "إنه آخر العهد بيننا"..

ثم بأيِّ مَغنم يَعِده "الحسين" وقد جاءته الأنباء بمقتل رسُله، وشراسة عدوه..؟؟

أغلب الظن أنه حدثه عن قضيته العادلة، ثم ختم حديثه معه قائلا: تلك هي القضية، ففيم إبطاؤك عن الجنة. ؟!!

وتابعت القافلة سيرها، كاسِبَة هذا النصير الجديد، ومنتظمة رجالاً آخرين كانوا ينضمون إليها خلال عُبورها بقُراهم وخيامهم عَبْر الطريق الطويل..

وبعد مسيرتهم من جديد، أبصروا فارسًا يثير النقْع، ويطوي الأرض..

لقد كان رسول ـ عمر بن سعد ـ الذي أوصاه "مسلم بن عقيل" قبل مقتله بأن يرسل للحسين يخبره بما حدث، وينصحه بالرجوع..

لم يبق فى الأمر إذن شك ولا ريب..!!

ولم يدر فى خاطر الحسن أدنى تردّد، بل انصبّ عزمه وواصل سيره..

كل ما هنالك، أنه أعفى أولئك الذين تطوّعوا لنصرته من رجال القبائل التى مرّ بها خلال سفره..

لقد انضمّوا إليه على أمر النصر.. أما الآن فالأمل فى الاستشهاد وحده..!!

ومضى فى صحبة أهله، وحاشيته، والنصير الحديد والعظيم "رهير بن القين"..

* * *

كان ابن زياد قد فرض حول الكوفة حصاراً مُحكماً، فلا يخرج من أهلها أحد، مخافة أن ينضموا لموكب البطل القادم إلى الكوفة.

ولم يأذن لأحد من أهلها بالخروج إلا إذا كان ذاهبا للحج، شريطة ألا يكون يحب "الحسن"، و"التشيّع له"..!!

وفى نفس الوقت، أُطلق من وراء مشارفها وحدودها العديدة طلائعه وسراياه، آمراً إياها أن تتربص بقافلة "الإمام الحسين" فإذا التقت بها إحداها احتجزتها حيث هى، ثم أرسلت بالخبر لابن زياد.

وعند إحدى القرى الرابضة على حدود العراق، التقى ركب "الإمام" بإحدى تلك الطلائع.

كانت تضم ألف فارس، تحت إمرة "الحر بن يزيد التميمى".

ولم يكد "الحسين" يراهم قادمين نحوه، ينضحون عرقاً من وقده الحر وقد بيّنتْ شفاههم من الظمأ، حتى أمر فتاه أن يسقوهم

بالماء، فشربوا حتى رَوُوا، ثم جلسوا في ظلال حولهم.. وأذن مؤذن لصلاة الظهر، فسأل "الحسين" الحر بن يزيد أتصلي بأصحابك وأصلي بأصحابي..؟

وأجابه الحر قائلا: "بل نصلي جميعًا بصلاتك"

ومضى الوقت بعد الصلاة في حديث ونحاور.. ثم صلوا العصر حين جاء موعده. واستأنفوا بعد الصلاة الحوار قال "الحسين" لهم:

"إني لم آتكم حتى أتتني كتبكم، وقدمت عليَّ رسلكم.

فإن أعطيتموني ما أطمئن إليه من عهد وميثاق دخلت معكم مصركم، وإن تكن الأخرى انصرفت عنكم".

ولكن - الحر بن يزيد - أبلغ "الحسين" رضي الله عنه، أنه لا يدري من الأمر شيئا، وأنه كلف من أمير الكوفة والبصرة - عبيد الله بن زياد - بمهمة محددة، هي انتظار ركب "الحسين" حين يجيء، ثم قيادته إلى ابن زياد بالكوفة..

ابن زياد بالكوفة..؟؟!!

يالهوان الدنيا حين تمسك بمقاليدها السَّفْلة، وتُهضَمُ فيها أقدارُ الكرام..!!

قال الحسين: "الموت أدنى إليك مما تريد". !! ثم أمر أصحابه فحملوا متاعهم، وركبوا رواحلهم، ثم تقدمهم في المسير منصرفًا عن الكوفة، معيِّرًا اتجاهه..

لكن "الحر بن يزيد" أمر فرسانه فقطعوا عليهم الطريق.

وصاح به الحسين: ماذا تريد..؟

قال الحر: أن تصحبني إلى ابن زياد.

قال الحسين: إذن والله لا أتبعُك..

وأجابه الحرّ: إذن والله لا أدعُك..

وصاح الحسين: إنها الحرب إذن..!!

وهنا لانتْ عريكة الحرّ بن يزيد فقال: إني والله لا أريد قتالك ولـم أومر به، وإني لأرجو أن يرزقني الله فيك العافية، ولا ابتلـى بشـيء من أمرك. ولقد أمرت إن أن لقيتُك ألا أفارقك حتى أخبر الأمير ابن زياد، فإن رأيت فأنحد طريقًا لا تُدخلك الكوفة ولا ترُدّك عنـها حتى يأتينا رأي الأمير"

ومضى ركب "الإمام الحسين" يضرب في تلك الرقعـة من الأرض، يميامن، مرة، ويتياسر أخرى. وفرسان ابن زياد يقاده الحرّ يدودون لركب عن البادية كلما همّ أن يدنف إليها ويدفعونه نحـو الكوفـة في رفق..

ولم يكد الرّكب يبلغ "نينوى" تلك القريـة التي قيل إنـها كانت موطن النبي "يونس" عليه السلام، حتى تراءى لـهم من النّقع المثار، راكب يعدّ السير ويطوي الرمال. وليثوا مكانـهم ينتظرون، فإذا هـو رسول ابن زياد للحر بن يزيد يحمل إليه كتابًا يقول فيه: "... أما بعـد، فاشدد على "الحسين" في المكان الذي يوافيك عنده كتابي.. ولا تُنزلـه إلا بالعراء، في غير حصـن وعلى غير مـاء. وقـد أمرتُ رسولي ألا يُفارقك حتى تأتيني بإنفاذ أمري، والسلام". !!

وتلا ـ الحر ـ الكتاب ثم ناوله "الحسـين" فتلاه. وأراد الحسين أن يستأنف سيره منحهًا صوب مَسيل ماء، فمنعه ـ الحرّ ـ الـذي كان

تحاصره نظرات الرقيب الوافد من عند ابن زياد.. غيّر "الحسين" اتجاهه، وسار بركبه والفرسان عن جانبيه.

ولكن إلى أين..؟

لقد حثىّ الحرّ أن تُفلت الفرصة منه، فتصدّى للركب لسائر وأصرّ على النزول حيث انتهت خطواته..

ونزل الركب من فوق رواحله.

وألقى الحسين بصره على الفضاء الموحش حوله..

ثم سأل: ما اسم هذا المكان..؟

قالوا: اسمه كَرْبَلاء..

فاختفى تفاؤله وراء إحساس بالحزن، وتذكرّ ذلك اليوم الذى تحدث عنه من قبل.. يوم كان "الإمام علي" فى طريقه إلى "صِفّين" فوقف على نفس المكان، وقال:

"هُنا، محطّ رحالهم، ومُهراقُ دمائهم".

تذكرّ "الحسين" المشهد كله، فقد كان يومئذ مع أبيه.

وداب الوجود من حوله فى لحظةِ تأملٍ حاره، صاهره.

كَرْبَلاء..؟؟!!

ها هى ذى نبوءة الأمس، وواقع اليوم، ومصير الغد!!

أىّ سر للقدر، ينشُره ويطويه.. يظهره ويُخفيه..؟!

وأيّه حكمة إلهية، تقود حياتنا بين مطالعها ومغاربها مُذعِنةً لقدَرِها الحكيم، وتقديرها العليم..!!

لقد راح البطل يستعيد بخواطره ذلك اليوم، وتلك الواقعة، وتلك النبوءة..!!

وراح يهز رأسه المضيء في حركة متأمّنة، كمن أدرك الحكمة وطالع المصير..

وارتسمت أمام مخاطره بحروف كبار آية القرآن العظيم:

﴿ قُل لو كنتم في بُيوتكم لبرز الذين كُتبَ عليهم القتلُ إلى مضاجعهم. وليبتلي الله ما في صدوركم، وليمحّص ما في قلوبكم. والله عليم بذات الصُّدور ﴾..

ونهض في قوة وطمأنينة، وراح يشارك صحبه في شدّ الخيام، فقد آن للعقيلات والأخوات أن يسترحن، بعد ما أصابهن لُغوبُ السفر، ومشقّة الطريق..

وراح وهو يعمل، يردد في حبور وتهلّل آية الله في كتابه:

﴿ إنَّ وليّيَ الله الذي نزلَ الكتاب وهو يتولى الصالحين ﴾..!!

الفصل السادس

# المـأســـــاة والعظمـــــة

وكان اليوم، غُرّة المحرم..

والعام، الواحد والستين للهجرة..

والمكان، كربلاء.. على مقربة من نهر الفرات..

وقبل أن نبلغ اليوم العاشر من المحرم.. يومَ الواقعة الرهيبة، والمهيبة.. يوم الآلام، والمجد.. يوم الفاجعة، والبطولة.. يوم المأساة، والعظمة..

قبل أن نبلغ هذا اليوم، علينا أن نتابع الأحداث التي سبقته، وكانت جزءًا من صميمه.

إن ابن زياد في الكوفة يعمل ليل نهار في إعداد ضربته الآثمة التي تلهثُ وراءها روحه المظلمة المسعورة..!!

وها هو ذاك، يختار قواده للمعركة، ويحشد المقاتلين..

وحين يرى الناسَ يهربون من الانضمام لجيشه، يلجأ إلى طريقته في معالجة العصيان، فيجمع أهل الكوفة أمام قصره، ثم يأتي بأحد المعتزلين عن الاشتراك في جيشه فيأمر بضرب عنقه، ثم يلقي برأسه ليتدرج على الأرض أمام الناس الذين يفزعهم المشهد، فيقبلون على طاعته كارهين ومكرهين..!!

وتذكر ابن زياد أن لديه جيشًا مجهزًا، قوامه أربعة آلاف فارس، كان قد أعده تحت قياده - عمر بن سعد - لمحاربة ثورة الدَّيْلم في أرض طَبَرستان.

كما كان قد عيَّن - عمر - هذا واليًا على الرَّيّ. فدعاه إليه وأمره أن يخرج بجيشه إلى كربلاء.

واعتذر عمر بن سعد، فرارًا من أن تتلوث نفسه ويداه بجريمة لا يطيقها ضمير به مُسْكَةٌ من رشاد..!!

لكن لطاغية هدده بحرمانه من الولاية التي كان يطمح إليها ويعزله عن الجيش كله، فضعفت مقاومة ابن سعد وغاب رُشده، وقَبِل القيام بالمهمة البشعة، وسار بجيشه إلى كربلاء..

وكان مستشار ابن زياد لهذه الحملة الباغية، مسْخَ شائه لخَلْق والخُلق، اسمه شِمْر بن ذي الجوشن.

رجل مدخول الإسلام، انشقَّت عنه الأرض بغتة في الأيام الأولى لفتنة الخوارج الذين ناصبوا الإمام عليًا العداء.. فأدلى معهم بدَلْوه، عاملاً لحساب نفسه الخسيسة، أو لحساب قوة خفية شِرِّيرة.

ومن تلك الأيام، وهو يكيد للإسلام، ويُحرِّب في صفوفه متخفيًا وراء ذلك القِناع المشوه - فشاع انتماؤه للخوارج ونسبه بمبادئهم إلى أغراضه المنكرة وأعراض الهوى التي تعمل لحسابها !!

ولقد نفث في روع ابن زياد أن هذه فرصة عمره، إذا استطاع أن يجهز على "الإمام الحسين" ويقدم رأسه هديه لسيده يزيد..!!

ونحن الآن في اليوم الثاني من المحرم وقد وافى كربلاء - عمر بن سعد - في جيشه المكون من أربعة آلاف فارس، كما ذكرنا

من قبل.

ولقد عسكر هناك على مقربة من معسكر "الإمام الحسين" الذى لا يزيد عن اثنين وسبعين من أهله وأنصاره وابتدأ عمر بن سعد مهمته باختيار أحد رجاله واسمه قره بن سفيان الحنظلي، آمرًا إياه أن يذهب إلى "الحسين" رضى الله عنه، فسأله: لماذا جاء؟؟

وأجابه "البطل":

"إن أهل هذا المصر - يعنى الكوفة - كتبوا إلىّ يذكرون أنهم لا إمام لهم، ويسألونى القدوم عليهم، فجئت إليهم.. وفى الطريق علمت نكوصهم، فأردت الرجوع، فمنعنى الحر بن يزيد، وسار بى إلى هذا المكان"..

وفرح عمر بن سعد، بهذه الإجابة التى أنشحت صدره إذ رأى فيها بادرة لإمكان الوصول إلى حل سلمى ينجيه من خوض قتال يتمنى ألا يطوّق عنقه بأوزاره الثقال..!!

فبادر بالكتابة إلى طاعنه الكوفة، الذى أجابه على الفور بكتاب يقول فيه: "قد بلغنى كتابك، فعرض على الحسين البيعة ليزيد، فإذا بايع ومن معه فأخبرنى وسأتيك رأيى"..!

وعرض ابن سعد كتاب الطاعنة على "الإمام الحسين" فكان جوابه: "لا أجيب ابن زياد إلى ذلك أبدا. وإن يكن الموت فمرحبًا به"..!!

ويرسل إلى أميره بردّ "الحسين" فكتب ابن زياد إليه "امنع الحسين وأصحابه الماء، وحُل بينهم وبينه حتى لا يذوقوا منه جُرْعة، كما فعلوا بالتقى "عثمان بن عفان" رضى الله عنه..!!

يا للفجّار حين يتوقّحون..!!

تُرى هل سأل ابن زياد نفسه: أين كان يوم منع "عثمان" الماء..؟؟
وأين كان "الحسن والحسين وأبوهما الإمام"..؟!
أما هو، فكان جيفةً تتنقل في مرابع الإثم..
وأما "الإمام". ومعذرة إلى الله عن هذه المقابلة التي تلجأ إليها مضطرين.

نقول: أمّا "الإمام" فقد كان يحمل قربه الماء على كاهله، ويخوض بها بين الثوار مقتحمًا صفوفهم، متحديًا حصارهم يذودهم ويدودونه، ويدفعهم ويدفعونه، حتى سقطت عمامته من فوق رأسه وحتى أنفذ الماء إلى الحليفة الظمآن!!

أما "الحسن وأخوه الحسين" فقد كانا هناك بأمر من أبيهما، يحرسان الخليفة ويذودان عنه غوادي الثوار.

ولقد جُرحا، وسال منهما الدم. ورغم ما بذلاه من طاقة وجهد؛ فإنهما لم ينحّوا بعد استشهاد "عثمان" رضي الله عنه من لوم أبيهما الشديد، بل ولطمهما بيديه، وهو يصرخ فيهما.

"لماذا لم تموتا دونه"..؟!

والآن، يزعم هذا الغرُّ الكذوب أنه يثأر لعثمان، ولا يتورع عن تخذ ذكراه وسيلة دنيئة يبرد بها وحشية وحرمان أبناء الرسول في تلك الأرض الفائظة من شربة ماء..!!

* * *

وعاد الحوار بين "الإمام الحسين" وعمر بن سعد، فاستمسك "الحسين" بموقفه في رفض مبايعة يزيد.

يقول "عفيف بن سمعان" وهو أحد اثنين من أصحاب "الحسين"

خلصا من المعركة:

"صحبتُ "الحسين" من المدينة إلى مكة، ومن مكة إلى العراق.. وسمعتُ جميع أحاديثه حتى يوم مقتله.

فوالله ما زاد على أن قال لهم: دعوني أرجع إلى البلد الذي أقبلت منه، أو دعوني أذهب في هذه الأرض العريضة؛ حتى ننظر ما يصير إليه أمر الناس.. فلم يفعلوا"!!

هو إذن لم يعرض كما تزعم بعض الروايات الدخيلة أن يذهبوا به إلى يزيد فيضع يده في يده..

هذا تحريف واضح.. وإلا فقم إذن كان امتناعه عن أن يقول بلسانه: بايعتُ يزيد، فينفضّ جيش ابن زياد، وينتهي كل شيء..؟!

لقد رفض الذهاب إلى الكوفة للقاء ابن زياد..

ثم رفض طلب ابن زياد، بأن يُبايع يزيد..

وها هو ذا الهول يحيط به وهو صامد، يرفض الإذعان لعصابة البغي والإثم في عزّة المتقين، وإباء الأكرمين. !!

وضاق صدر ابن زياد بصمود البطل، ففزع إلى مستشاره الزنيم شمر بن ذي الجوشن، فأشار عليه أن يقسو على - عمر بن سعد - في خطابه، ويأمره أن يجيء بالحسين ومن معه إلى الكوفة عنوة، فإن أبوا، قاتلهم حتى الموت..

ويلمح شمر، الممتلئ بقذارة النفس وخبث الطوية.. يلمح في ذلك الحوار الدائر بين "الحسين" وعمر بن سعد بادرة قد تُفضي إلى مهادنة أو تفاهُم - الأمر الذي لا يُشبع نَهمَه الخبيث إلى التقويض والتخريب اللذين يعمل لهما منذ زعم الإسلام وادّعاه. !!

هناك هناه تمكبره الخبث إلى أن ينتقل بنفسه إلى أرض القتال، ليتولى إصرام النار، إذا هي لم تُصرم نفسها ولتصل بالمعركة بعد شُبوبها إلى الغرض الذي يريد..!!

وهكذا اقترح على ابن زياد أن يحمل كتابه بنفسه إلى قائد جيشه عمر بن سعد، ويبقى هناك عيناً لابن زياد ورقيباً، ومقاتلاً أيضاً.

واشترك مع أمره الطاغية في صياغة كتابه إلى ابن سعد، ثم هرْوَل به إلى كربلاء..

"من عبد الله بن زياد أمير الكوفة والبصرة، إلى عمر بن سعد، فإني لم أبعثك إلى "الحسين" لتكُفَّ عنه، ولا لتكون له عندي شفيعاً.

ادْعُ الحسين" إلى ما أمرتك، فإن نزل وأصحابه على الحكم مستسلمين، فابعث بهم إليّ وإن أبوا، فازحف عليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم.

وبعد أن يُقتل "الحسين" أوطئ الخيل صدره وظهره.. فإن مضيت لأمرنا، جزيناك جزاء السامع المطيع.. وإن أبيت فاعتزل جندنا.. وخلِّ بين شمر بن ذي الجوشن والعسكر والسلام"..!!

لم يكد عمر بن سعد، يتلو كتاب أميره حتى أدرك ما وراءه من كيد ابن ذي الجوشن، فقال له:

"لقد أفسدت علينا أمرنا كنا نرجو صلاحه.. والله لن يستسلم الحسين أبداً"..

فأجابه شمر: "امْضِ لأمر أميرك وقاتل، أو فخلِّ بيني وبين الجند"..

ومرة أخرى، غلب ابن سعد على دينه، واستسلم لأطماعه وهواه، فرضي أن يبقى قائداً لحملة رجيمة، وجيش ظلوم!!

وضَحَتِ النوايا إذن، أمام "الحسين"..

إنهم يريدون إذلاله، أو يريدون حياته.

أما المذلّةُ؛ فالمماتُ دونها!!

وأما حياته، فليس هو أول مَن يجود بها في سبيل الحق من آل بيته العظيم، ولن يكون آخر من يجود بالحياة منهم..

الصعب في الأمر، أنهم لا يريدون أن يقاتلوا قتال الشرفاء، بل ولا قتال الآدميين!!

إنهم لا يقنعون بمواجهته في أربعة آلاف فارس. بينما كل الذين معه من أهل وصحب، اثنان وسبعون لا غير..

أجل. إنهم لا يقنعون بتفوقهم العَدديّ الساحق، فيخوضون في صغارٍ ولؤم، بينه وبين الماء، وهم يرون من وراءه في الخيام من سيدات، وأطفال، ومرضى!!

لقد حاصروا الطريق إلى الشريعة بخمسمائة فارس وحفّت القرب التي كان أخوه "العباس بن علي" قد ملأها من قبل عنوة، وقبل أن يَضْرى حولها الحصار.

ولقد يصبر "الحسين" ويصبر رجاله على الظمأ إلى حين، ولكن الأطفال والنسوة الذين لم يعد يُطاق مشهدهم وهم يترنحون تحت وطأة الظمأ القاتل!! ماذا يصنع البطل لهم..؟!

تُرى هل أسِف على خروجه من مكة إلى حيث هو الآن..؟

إن المؤمنين لا يأسفون على خطر، ولا يجزعون من قدَر..

ولعلّه قد أسف لشيء واحد، هو أنه لم يسمع لنصح ابن عمه "عبد الله بن عباس" ألاّ يصحب معه الحرائر والأبناء. ومع هذا فالله الأمر من قبل ومن بعد!!

ولسوف يصبر على واجبه، ونعلق مصيره بما عرف عن بنته الكريم من رضًا وثبات وولاء..

هكذا وقف ابن الرسول الأكرم. وقف ابن "علي" لبطل، و "فاطمة" لزهراء الموقف اللائق به، والمقدور له.

كان يستطيع أن يخادعهم، والحرب خدعة

بل كان من حقه لو شاء أن يداور بلسانه، حتى إذا عاد بأهله إلى مكة واطمأن على سلامتهم، حتى البعة وألقى بها إلى النيران، وله من دينه في مثل ذلك رُخصةٌ سجلها القرآن في بعض آياته فقال:

﴿.. إلاّ مَنْ أكره وقلبُه مطمئنٌ بالإيمان﴾.

ولكنه سليل بيت، ليس من طرازه سواه وابنُ رجال لا يركنون الرّخص، بل يعانقون العزائم!!..

إن عدة المعركة لواضحة مقروءة. فئتان وسبعون، لن يُهزموا بل يقتلوا من أربعة آلاف فارس ضربوا حول القلة الصامدة أبشع حصار. إنه لا أمل في النصر.

ولكن، أيّ نصر هذا الذي لا أمل فيه..؟ النصر العسكري في معركة غير متكافئة..؟؟

لكن ذلك، فأين النصر الآخر، الأعظم، والأكرم، والأبقى..؟

النصر الذي يتحقق ويتمثل في بذل الحياة من أجل الواجب.. وفي إعطاء القدوة بروعة الثبات.. وفي إضاءة ضمير الحياة

بجلال التضحية..؟!!

هذا النصر، هل فقد "الحسين" الأمل فيه؟؟ لا. بل لقد تحشدت فيه كل آماله وآمال الذين معه، ومن ثم نشأ ونشئوا به في وله عظيم، وراح يقاتل ويقاتلون في سبيله على نحو يحلّ عن النظير..!!

وإنا لنظلم يوم كربلاء ظلمًا كبيرًا، حين نظنه مأساة لا غير وفاجعة لا أكثر.. ونخدعه مأساة لاجترار الأحزان والآلام.

لا.. ثم لا، يا رجال!!

إنه مأساة وفاجعة إذ نظرنا إلى الشكل الخارجي للمعركة، فرأينا السُّفلة الأدعياء ينتصرون. ورأينا الوحشية المحرمة تفتك بأبناء الرسول ﷺ.

لكنَّ يوم كربلاء ليس مأساة وفاجعة، إذا نحن نظرنا إلى جوهره النضير، فرأينا عظمة الثبات، وروعة البطولة، وعزة الإيمان، وجلال التضحية، في مهرجان للحق، هيهات أن يكون له نظير..!!

وستكون لنا إن شاء الله وقفة مع هذا المعنى الجليل الخالد في الفصل القادم من الكتاب.

أما الآن، فإن علينا أن نسارع إلى مكان المعركة الأليمة والعظيمة؛ فإن ساعاتها الحاسمة تقترب..!!

نحن الآن مع اليوم التاسع من المحرم، وقد ولّى نهاره وذلف ليل جديد!!

ولقد أخذ جيش ابن زياد يتحرك للوثوب..

ورأى الحسين تحرك بهم، وتذكّر واجبًا لابد من أدائه قبل أن يبدأ القتال.

هنالك أرسل إلى قائدهم عمر بن سعد - طالبا إرجاء القتال إلى غد.. وأجابه ابن سعد إلى ما طلب.. ولعلّه ظن ان وراء هذه الرغبة في الإرجاء عزمًا على طلب السلم وعلى بيعة يزيد!!

ترى، لماذا طلب "البطل" إرجاء القتال..؟؟

هل ليُدبر خواطره من جديد حول موقفه؟

هل اقترب اليأس من عزمه، فأراد أن يفكر مع نفسه في البحث عن مخرج بوفيه وأصحابه ما ينظرهم من هول ؟

كلا.. لم يكن لشيء كهذا أي وجود في روع البطل، ولا في تفكيره.

فهو قد وطّن نفسه على الموت من أولى ساعات المؤامرة التي بدأت مع طلائع جيش ابن زياد..

وهو لا يعرف حيارى، بين أمرين، تأسيهما خذلان الحق وبيعة يزيد!!

إن أمامه طريقًا واحدًا، ليس لمثله أن يسلك في هذه القضية سواه ذلكم هو سبيل التضحية والبذل، ولو أمكن؛ فبألف حياة..!!

إنما طلب إرجاء القتال إلى الغد؛ لأنه عظيم جدّ عصيم.. ليس لعظمة نفسه منتهى، وليس لنَفْس روحه حدود!!

انظروا..

عندما استبان له نجاح المعركة أراد أن يدفع حياته وحدها زُلفى لها وقُربانًا..!!

لم يشأ أن يدفع لسيوف العدى حياة أنصاره الخمسين، ومعهم الأشبال والرجال من أهله وأبنائه، بعد أن تعبر الموقف بالنسبة لهم..

لقد خرجوا معه على حساب أن الكوفة في انتظارهم، ليبدأوا منها وبها مقاومة مشروعة، يدّخصون بها صلال حكم الشام، ويدرأون بها عن الإسلام خُبْثَ بني أمية.

لكنهم فوجئوا بالكوفة تنظرهم بوجه آخر كالح وعبوس..

فرُسلُ "الحسين" صُرِعوا واستشهدوا..

والألوف التي أعطت بيعتها لمسلم بن عقيل، تبدّدتْ واختفت كالجرذان..!!

وبدلاً من أن يجد البطل في أسفاله كتائب الحق من شيعته وأنصاره، وجد عصابات البغي تنظره بالغدر والمذابح!!

إذن، الموقف قد تغير بالنسبة للذين معه من أهل وأنصار.

وإن لم يكن قد تغير بالنسبة له، ولما وطّن عليه إرادته، وعزمه وضميره.

وهكذا طلب إرجاء القتال، ليجعل أهله وأصحابه في حِلٍّ من كل التزاماتهم تجاهه..!!

وهكذا جمعهم في الليل، وقال لهم بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

- "... أما بعد، فإني لا أعرف أصحابًا خيرًا من أصحابي ولا أهل بيت أبرَّ، ولا أوصل من أهل بيتي.. فجزاكم الله خيرًا، فقد برَرْتم وأعَنْتم..

وإنكم لتعلمون أن القوم لا يريدون غيري.. وإن يومي معهم غدًا..!!

وإني قد أذنت لكم جميعًا، فانطلقوا في غير حرج ليس عليكم مني ذِمام.

هذا هو الليل قد غشيكم، فانطلقوا في سواده قبل أن يطلع النهار، واتخذوا بأنفسكم"..

من لمثل هذا الموقف المعجز، مثل ابن "علي" وحفيد "محمد" ﷺ ؟؟!

من، يا رجال..!!؟؟

وهو لم يقلها لأهله وصحبه استدراراً لعطفهم، فمتى نعى عطفهم في هذا المقام؟؟

إنما كان يعي تمام كل كلمة قالها، كان يعي تمامًا ألا يحمّلهم مسئولية الموقف الذي اختاره، والهول الذي قرر أن يُواجهه في استبسال.!!

تُرى، هل ينفي الأهل و الأنصار رأيه هذا، وتوجيهه؟ كلاّ .

ولماذا ..؟؟

لأن العظمة، ولأن البطولة كانت في ذلك اليوم على موعدٍ مع هؤلاء الأبرار جميعًا فتانًا وكهولا، لتحفّ بهم أروع مشاهدهما، وأسمى أمجادهما..!!

من أجل ذلك، لم يكد البطل يفرغ من كلماته، حتى تحولوا جميعًا إلى أسود تزأر بالكلمات، وتشرقُ بالدموع!!

صاح أخوه لأبيه "العباس بن علي":

"معاذ الله و لشهر الحرام ومتى نقول للناس إذا رجعنا إليهم؟؟

نقول، تركنا سيدنا و بن سيدنا عرضة للنبال ودريئةً للرماح، وحرزاً للسباع.. وفررنا عنه رغبة في الحياة؟؟!!

معاذ الله.. معاذ الله.. بل نحيا بحيائك . ونموت معك"..!!

وصاح بمثل ذلك "بنو عقيل" و "بنو جعفر" وتقدم ابنه "علي بن الحسين" ـ فتى لم يتجاوز سنّه التاسعة عشر. !!

وسأل أباه:

"ألسنا على الحق يا أباه؟؟"

قال الحسين:

"بلى، والذى أنفُسنا بيده.."

فصاح فتاه العظيم:

"إذن، والله لا نُبالى"..!!

ومن أصحابه وأنصاره، قام "زهير بن القَيْن" يزأرُ وينادى:

والله، لوددتُ أن أقتلَ ثم أبْعَث.. ثم أقتلَ ثم أبْعث.

هكذا ألف مرة، أكون فيها رِدْءًا عن حياتك وحياة هؤلاء الفتيان من آل بيتك"..!!

وتلاه "مسلم بن عَوْسَجه الأسدى":

"أنحنُ نتخلّى عنك، ولم نعْذر إلى الله فى أداء حقك؟؟

أما والله لا أفارقك حتى أكسر فى صدورهم رمحى وأضربهم بسيفى ما ثبت قائمُه بيدى..!!

ولو لم يكن لى سلاح، لقذفتُهم بالحجارة دونك حتى أموت معك"!!

وقام آخر.. وآخر.. وآخر..

هَبُّوا جميعًا يُعطون أمجد بيعه فى تاريخ التضحية والفداء بيعه على موت مُحقق. فليس هناك لما دون الموت أدنى احتمال!

ألم أقل لكم: إن العظمة والبطولة أرادتا أن تجعلا من ذلك اليوم مهرجانًا وعيدًا..؟؟!!

لقد ارتفع الأبطال جميعًا إلى مستوى الموقف المجيد، الذى سيجعلون منه درسًا لأجيال الدنيا كلها فى الولاء الباهر للحق، وفى التضحية الشاهقة من أجله. وهاهم أولاء، يعودون لمصاريعهم وخيامهم.. يتهيأون للقاء الغد بالصلاة والابتهال وبشحذ سيوفهم، وبَرْى سهامهم، وصَقْل رماحهم!!..

ومن طريف ما حدث فى ليلتهم تلك، أن "نافع بن هلال النَّخَعى" رضى الله عنه وعنهم أجمعين، قصى شَطْر ليله فى كتابه اسمه على سهام نَبْله، إمعانًا فى طلب المثوبة والأجر. وإمعانًا فى السخرية من الخطر وإمعانًا فى الترحيب بالموت..!

وطلع الصباح.. وأقبل اليوم المشهود. العاشر من المحرم!!

بدأ البطل يومه المجيد بصلاة الفجر.. أمَّ فيها أهله وصحبه.

وطلعت الشمس على سبعين، أو اثنين وسبعين بطلا فى جانب.. وأربعة آلاف ذئب فى الجانب الآخر.

ووقف "الحسين" يعبِّئ رجاله.. فجعل "زهير بن القين" على الميمنة. و"حبيب بن مظهر" على الميسرة. وأعطى الراية "لأخيه العباس بن على".. وتقدم شباب آل البيت، لبأحذوا مكانهم فى الصف الأول فدفعهم عنه الأنصار قائلين:

"معاذ الله أن تموتوا ونحن أحياء، نشهد مصارعكم. بل نحن أولا، ثم تجيئون على الأثر"..!!

وهكذا وقفوا فى الصف الثانى وراء القائد والأنصار. وفى الجانب الآخر وقف - عمر بن سعد - يُعَبِّئ جيشه، ويظم ميمنته وميسرته.

ياويْحهم.. ألا يَحملون؟؟!! أربعة آلاف، لاثنين وسبعين.؟؟!!

وفى سبيل ماذا..؟؟

فى سبيل باطل يرونه رأى العين، وفى سبيل أكذوبة صغيرة اسمها - يزيد - وجريمة منكرة، اسمها - ابن زياد .؟!

ومِن عجبٍ أنهم كما يحدثنا التاريخ، خرجوا لجريمتهم تلك بعد أن صلّى بهم قائدهم صلاة الصبح. !! أصحيح أنهم صلوا، وقرأوا فى آخر صلاتهم:

"اللهم صَلِّ على محمد، وعلى آل محمد..؟!"

دن ما بالهم يَقتلون من صلاتهم ليحصدوا بسيوفهم الآثمة آل محمد..؟! لكمْ كان "نافع بن هلال البُجَلىّ" صادقًا وهو يقول لابن ذى الجون الشقى:

"والله لو كنتَ من المسلمين، لعظُمَ عليك أن يلقى الله بدمائنا..

فالحمد لله الذى جعل منايانا على أيدى شِرار خلقه"..!!

أجل، الحمد لله. فتلك مزية ادّخرها القدر للحسين وأصحابه - أن يجىء مصرعهم المقدر على أيدى شرار لا يُقيم الله لهم وزنًا فى الدنيا ولا فى الآخرة.

فلكمْ يشُق على الأنفس المؤمنة أن تجىء منايا على أيدى قومٍ خيارا!!

أتذكرون كلمات أمير المؤمنين "عمر بن الخطاب" رضى الله عنه عندما أفاق من غشية الطعنات الغادرة التى وجهها إليه وهو يصلى، أبو لؤلؤة المجوسى..؟

لقد تهلل وجه "عمر" حين عرف هويّة قتيله.. وحمد الله كثيراً، إذ لم تحنثه لضربه من برٍّ تقيّ. وجاءت من ذلك المحموم الزنيم..!!

ومن الخطوط الوافية للحسين وأصحابه، أن خصومهم في تلك المعركة كانوا أشراراً.. أشراراً من الرأس إلى القاع. ولم تكن فيهم خيّر واحد، ولا برٌّ واحد يمكن أن تشكل وجوده بينهم أمارة احتجاج أو علامة استفهام..؟!!

* * *

أوشك القتال أن يبدأ..

ولكن قبل أن تنقذف أول سهامه، وقع حادث عجيب..

أتذكرون "الحُر بن يزيد التميمي" قائد الطليعة التي أرسلها ابن زياد من الكوفة.. والذي التقى ركبُ "الحسين" واضطره للنزول في كربلاء..؟؟

إنه لم يكد يرى القتال على وشك البدء، حتى أحس فداحة الجريمة التي سيلوّثه، وبشاعة الوزر الذي سيحمله، وظلام المصير الذي سيكون له عند الله، فجرح بحواده من صفوف فرسانه، واقترب من قائد الجيش ـ عمر بن سعد ـ وصاح به:

ـ أمُقاتلٌ أنت ذلك الرجل .؟

قال ابن سعد:

ـ نعم والله، قتالاً أيسره أن تبين الأيدي، وتطوّح الرؤوس!!

قال الحُرّ:

ـ أوَلستم تاركيه يرجع إلى حيث أتى، أو يصير كما قال في

الأرض العريضة..؟

قال ابن سعد:

ـ لو كان الأمر بيدى لمنعت.. ولكن ابن زياد يأبى ذلك..

فصاح "الحُرّ" وهو يدفع جواده نحو صفوف الحسين (إذنْ، فقاتِلنى معه)..!!

ونزل من فوق حواده، يعانق "الحسين" ودموعه تتحدّر من مآقيه، ويقول له: ـ

قد كان منى بالأمس ما كان، وقد استبانَ لى خطؤك، فجئتك أفتديك بنفسى.

أفترى فى ذلك توبةً لى مما صنعت"..؟

وأجابه الطل، وهو يضمّه إلى صدره النبيل:

"إنها خير توبة، فابْشِر.. فأنت الحرّ فى الدنيا.. وأنت الحرّ فى الآخرة إن شاء الله"..!!

وكما صنع "الحرّ بن يزيد" صنع بطل آخر، هو "يزيد الكندى".. لقد غادر مكانه فى جيش ابن زياد، ويصوّب عليه، ثم انطلق يَعْدو بحواده إلى جبهة "الحسين" العظيم..!!

* * *

والآن..

أتبصرون ذلك السهم الذى انطلق يمزّق الهواء فى اتجاه "الحسين" وأصحابه؟؟

إنه السهم الذى قذفه ـ عمر بن سعد ـ قائد جيش ابن زياد معلنًا بدء القتال..

وتلاه على الأثر، بُروز صف من رجال ابن سعد يطلبون المبارزة. ومن صفوف الأبطال خرج إليهم أكفاؤهم الأشِدّاء..

هذا "عبد الله بن عمر الكلبي". مؤمن من الكوفة لم يكد يعلم باحتجاز "لحسين" عند كربلاء، حتى اصطحب زوجته معه وشدّ إليه الرِّحال.

ها هو ذا يوفّي لله بيعته..

وها هو ذا، يخرج إلى مبارزه، فيصرعه من فوره.

وكان استهلالاً باهراً، أطار صواب الآخرين، فهجم عليه الشياطين المرَقّة حيث ضربه أحدهم بسيفه فطارت كفه في الهواء. لكنه انثنى على ضاربه فصرعه في لحظة..

وتكالب عليه آخرون، تبكّروا حتى لِشَرف المبارزة وقواعدها، لاسيما حين رأوا أن جميع مُبارزيهم صُرِعوا، بأيدي الدين خرجوا إليهم من أنصار "الحسين"..

ولم يتركوا الرجل إلا عندما أبصروا فريقٌ من أصحابه يقتربون منهم بسيوفهم المشرَعة. عندئذ ولوا عنه، وهو مُثخن بجراحه.

واشرأبّت زوجته من بعيد، فبصُرت به، وانطلقت تُهرول إليه حاملةً بُمناها حربة طويلة. حتى إذا بلغته راحت تحضنه بين ذراعيها ليهض قائمًا وهي تقول له:

"فداك أبي وأمي..

قاتِلْ دون الطيّبين من ذُرية محمد ﷺ!!

لكنه يصيح بها، ويصرخ إليها كي تعود إلى خبائها، فإذا هي تُلَبّي بصوتها الواثق:

"لا، لن أعود.. ولن أدعك تذهب إلى الفردوس وحدك"..!!

ولكنه يزحف بجسده المُثْخن، ويدفعها أمامه نحو الخيام فتستعصي عليه، وتستميت دون الرجوع.

ويلمح "الحسين" المشهد من بعيد فباديه:

"جُزيتُم عن أهل بيتي خيراً"..

ارجعي يرحمك الله، فليس علينكُنَّ قتال".

وآنئذ لا غير، تمتثل وتطيع، فربها لا تستطيع لأمر ابن الرسول عصيانًا!!

ويستأنف "عبد الله بن عمر الكلبي" زحفه فوق أرض جاشَتْ بالصراع، ضاربًا بسيفه ذات اليمين وذات اليسار، حتى غاضَتْ حياته تحت وطأة الهول الذي كان جسده قد تلقاه..!!

ومرة أخرى، تندفع إلى أرض القتال زوجته التي صمَّمت على ألا يذهب قبلها، وألا يذهب دونها إلى الجنة. وراحت تبحث بين جثث الشهداء حتى وجدته، فجثت بجواره تُسَجِّيه بحنانها، وتضمُّه بكفيها، وتقبِّل الجراح التي رصَّعت جسده وهي تصيح: "هنيئًا لكَ الجنَّة"..!!

ثم ربضت إلى جواره، ويدها على مقبض سيفه، لتحرس جثمانه من الوحوش الذين كانوا يعودون إلى الشهداء، ليحتزوا رءوسهم!!

لكن الشقي الزنيم - شمر بن ذي الجوْن - أبصرها، فأمر واحدًا من شياطينه، عاقلها من الخلف وهشَّم رأسها، وهكذا لم يحرم من صحبة زوجها إلى الفردوس الأعلى..!!

* * *

التحمت الجبهتان التحامًا رهيبًا.. ورأى جنود زياد كثرة القتلى الذين يسقطون منهم رغم كثرتهم الهائلة، فجُنَّ جنونهم، وهجم فُرسانهم في ضراوة..

وبرز لهم فرسان "الحسين" الذين لم يكونوا أكثر من اثنين وثلاثين فارسًا، فدمَّروا هجومهم تدميرًا، وجاوروا الدفاع إلى الهجوم في سرعة ماحقة، وأحاطوا بفرسان ابن زياد، ثم مرقوا داخل صفوفهم يطوِّحون برءوسهم كالذباب!!

وسُقط في يد قائدهم عروة بن قيس" فنادى "عمر بن سعد" من فوق صهوة جواده، كي يُدركه بالرماة!! وأمر "ابن سعد" جيشه فتقدم بأجمعه، يتقدمه خمسمائة من الرّماة..

وكبَّر "الحسين" تكبيرة هزَّت الأرض ونادت زلزالها. وانقذف يضرب بسيفه، فكأنه قدر، لا رادَّ لأمره. ولا مهرب من حُكمِه!!

كان يشدّ كالليث على غريم فيصرعه.. ثم ينصر آخر في طريقه بسيفه الغادر إلى بعض أصحابه، فيُثنى إليه كالصقر ويُرْديه!!

وحلَّ روحهُ العلاَّب في أفئدة أصحابه، فاشتعل حماسُهم، واتَّقد مَضاؤهم وامتلأت أفئدتهم المؤمنة عزمًا وشوقًا، وراحوا يضربون ويقاتلون، في استبسال عظيم.

كانوا كلما قلَّ عددُهم بوقوع الشهداء منهم، ازدادوا إقدامًا وقوة. لكأنما كانت أرواح شهدائهم تستأنف بعد انطلاقها من أجسادها، نضالها وقِتالها..!!

لم يكن أصحاب "الحسين" يتعجَّلون النصر؛ فما أبعد النصر عن قوم يقاتلون في مثل ظروفهم وبمثل عددهم

إنما كانوا يعجّلون الجنة؛ إذ لم تكن لديهم ريب فى أنها المُنتهى والمصير..!!

وركز رُماة الأعداء ضرباتهم على الجياد التى يمتطيها فرسان "الحسين" فعقروها جميعًا..

وهبط الفرسان إلى الأرض ليقاتلوا مع إخوانهم.

كان كل بطل من أصحاب "الحسين" يكاثرُ عليه عشرات من جيش ابن زياد.

وهذه وحدها، تُريك كيف كانت ضراوة القتال وعَظمة الاستشهاد!!

ورغم ما كان لجيش الباطل من تفوق، فقد كان الفزع من نصيبه وحده.

وليس هذا ما يصور هذه الحقيقة مثل إقدامهم على حَرق المضارب والخيام التى كانت لأهل الحسين وأنصاره.

لقد أحرقوها؛ ليشعلوا بإطفاء نارها المندلعة تلك المِلّة الصامدة لقتالهم والمطوّحة برءوسهم.!!

واشتعلت الحرائق عالية، فنادى "الحسين" فى ثبات عجيب:

"لا بأس.. اجعلوا الحريق وراء ظهوركم؛ فلا يستطيعوا اجتياز النار إليكم"!!

ونجا قُسطاط "الحسين" من الحريق..

وفى حصمّ هذا الهول الذى شكله القتال الضارى الوبيل، وقف "البطل" يُقلّب وجهه فى السماء!!

لقد كان ينتظر مقْدم عزيز لم يُخلِف قط موعده معه ـ ذلكم هو الصلاة..!!

أجَل.. لقد انتصف النهار، وحان منفات الظهر، وموعد صلاته.

وللصلاةُ في ميدان القتال طريقة خاصّة. وهكذا تبدى "الحسين" لصلاة الظهر- صلاة حرب وقتال!

هل رأى الناس شيئًا كهذا، في جلاله، وجماله، وعظمته. ؟

حتى الموت يبوشه ويَنوش أصحابه من كل جانب، لا يغفل عن واجب ربه، ولا عن فرائض دينه!!

ويَفرغون من صلاتهم ليواصلوا جهادهم، وقد بدأ النصف الثاني من النهار..

أيّ إعجاز كان هذا الذي حدث..؟؟

وكيف صمد اثنان وسبعون طيلة هذا الوقت لأربعة آلاف فارس، ورام.. وكيف ستظلّ بقيّتهم صامدة حتى آخر النهار..؟؟

أوكل هذا الثبات، يهَبُه الحق أتباعه وأشياعَه..؟!

أجل، وأكثر من هذا يمنح الحقّ ويُعطي..

* * *

لقد أحاط البواقون من أصحاب "الحسين" به يقاتلون من حوله ويذودون عنه. وكل أمانيهم أن نواتيهم منايَاهم وهم بين يديه، أو عند قدميه..!!

فهذا "حنْظَلة بن سعد الشامي" ينادي أعداء الحقّ:

"إني أخاف عليكم يوم التَّناد.. فرياكم وقتل "الحسين" فقد خاب مَن افترى"..

ثم يثبت بين يديه كأنه جبل، لا تزحزحه عن مكانه عشرات السيوف والرماح التي اتخذته هدفًا.. ويظل يقاتل حتى يقع شهيدًا..!!

وهذا "سيف الله بن الحارس وأخوه مالك" يقربان من البطل، ويعانقانه، ثم يقولان له:

"موعدنا الجنة"

ويقاتلان معه ومن حوله حتى تدركهما الشهادة!!

وهذا "عبد الله بن عروة وأخوه عبد الرحمن" يحوصان في صفوف الأعداء ويُصليانهم سعيراً..

ويُثقل جسدهما بالطعن والضرب والجراح، فيقعان على الأرض حائرة قواهما.. ثم لا تكاد أعينهم تقع على البطل يقاتل وحده عشرات من الأعداء القُساة حتى تنفض فيهما من جديد عافية الأسود، ويتصرّم بأسهما.. وينهضان من بين يديه في قتال مرير حتى يقع أجرُهما على الله شهيدين عظيمين!!

وهذا "شوذب" و "عباس بن أبي شبيب" و "نافع بن هلال البجلي" و "سويد بن أبي المطاع" وعشرات من إخوانهم المباركين راحوا يقاتلون في جسارة وغبطة.. كلما سقط أحدهم جريحًا نهض فوق جراحه، وسبح فوق دمائه حتى يعود فيقاتل.. ويقاتل في عزم شامخ وثبات مَكين؛ حتى لحقوا جميعًا بإخوانهم الذين سبقوهم أول النهار - "زهير بن القين" و "عبد الله بن عمر الكليبي" و "الحرّ بن يزيد" و "ويزيد الكندي".. أولئك الأبطال الذين قاتل الواحدُ منهم وكأنه جيش وحده.. والذين أبْلَوا في المعركة بلاءً يتعاظمُ كل وصف وكل إطراء..!!

* * *

وتقدم آلُ بيت الحسين..

تقدم أبناء الرسول ﷺ نحو مصيرهم العظيم..

لم يَعُد الذى يُضْنيهم الظمأ إلى الماء الذى حرمهم منه المجرمون.

بل الظمأ إلى الشهادة.. والشوق إلى الجنة!! لقد كانوا فى لحظاتهم المجيده تلك، يشمُّون عبير جدهم الرسول ﷺ .. وجدتهم خديجة.. وعبير حمزة.. وجعفر.. وعلى.. وفاطمة . فيدركون أنهم صاروا فى الجنه على قُرب دراع، فيطلقون نحوها فى هُيام !!

وكان أولهم انطلاقًا "على بن الحسين".

فتىً لم يجاوز التاسعة عشرة من عمره!!

انظروا!!

ها هو ذا - فى نضْرة شبابه.. وريْعان إهابه.. فى روعة بأسه وشرف نفسه.. يتوسَّط حراب الأعداء وسيوفهم، وهو ينشد:

أنا علىُّ بنُ الحسين بن علىٍّ

نحن وربِّ البيت، أولى بالنبى

تاللهِ، لا يَحكُم فينا ابنُ الدَّعىِّ

تمامًا، كما كان يصنع من قبل جدّه "الإمام على" حين كان يقتحم المعارك فى عُنفوانه اللَّجِب، وهو يرتجز:

"أنا الذى سمَّتنى أمى حَيْدَرَه

كلَيْثِ غابات، كريه المنظَرَه

أوفيهُموا بالصَّاع كيل السَّندرة"

ها هو ذا، ابن التاسعة عشرة، يعيد إلى الحياة مرة أخرى بطولات

جده العظيم.

ذريّة بعضُها من بعض!!

ويمضى، يَضرب ويُضرب.. حتى تصيبه طعنة رمح، فيقع على الأرض، وقبل أن يتحامل على جراحه لينهض من جديد كانت عشرات السيوف البغية قد مزقت جسده العضّ الشريف!!

ويراه الحسين.. مجْد الله الحسن - فيُسرع نحوه. ويسرع معه شباب بنى هاشم.!!

وفى رباطه جأش تُذهل كل حيّ، حمل البطل ابنه الحبيب، ثم سحّاه على ذراعى واحد من بنى عمومته، وأمره أن يذهب به إلى فسطاطه.

ولا تكاد الطاهرة البَتول "زينب بنت على" رضى الله عنه وأرضاها.. لا تكاد تبصر جثمان ابن أخيها حتى تعلوَ زفراتُ أسَاها..

أهذا الذى كان من دقائق معدوده، يملأ الأعيُنَ، شبابهُ، وبهاؤه، وسَناؤه..؟؟

هنالك انكبّت على الأشلاءِ الطاهرة الناضره، تُصمّخها بدموعها وشَجنها..

وأثر فى البطل مشهد أخته، فسار إليها بسأبها الصبر.. ويقودها فى رفق إلى خبائها.

وعاد هو إلى ساحة القتال.

لم يكد هناك على أرض المعركة سوى أهل بيته.

أما أصحابه وأنصاره، فقد رحلوا جميعًا شهداء ممجّدين..!

ولقد استفتح آل البيت بفاهم العظيم "على بن الحسين"..

ومن بعده تقدموا جميعًا كالصقور الكواسر..

ها هم أولاء إخوته لأبيه:

عبيد الله بن علي بن أبي طالب.. وجعفر.. وعثمان.. ومحمد الأصغر.. وأبو بكر.. والعباس. يقذفون بأنفسهم وسط الهول، وأخوهم العباس يهتف فيهم قائلا:

"تقدموا؛ حتى أراكم قد نصحتم لله ولرسوله".

فيتقدمون إلى قلب الجيش المسعور بسوفه العاوية، ورماحه الباغية.

وكلما لمحوا خطرًا يقترب من أخيهم البطل "الحسين" تلقوه بأجسادهم حتى سقطوا جميعًا صرعى.. بل قولوا صعدوا جميعًا شهداء..!!

وعلى ثراها تمددت أجسادهم الكريمة يسبقها جثمان "العباس بن علي" الذى كان لبهاء طلعته، وتألق شخصيته، يُلقَّب بـ "قمر قريش"!!

* * *

وتقدم أبناء "الحسين" وأبناء "الحسن":

أبو البكر بن الحسين.. وعبد الله بن الحسن.. والقاسم بن الحسن..

كما تقدم أبناء جعفر بن علي بن أبي طالب: عَوْن.. ومحمد.. وعبد الله.

وأبناء "عقيل بن أبي طالب":

عبد الله الأكبر.. وعبد الله الأصغر.. وجعفر..

وأبناء "مسلم بن عقيل" الذي قتله ابن زياد بالكوفة: محمد.. وعبد الله..

كما تقدم محمد بن أبي سعيد بن عقيل..

تقدموا جميعًا في بطولة يتحدَّى نفسها!!

واندفع أصغرهم سنًا - القاسم بن الحسن - يهز سيفه في الهواء الساخن، ثم يهوي به فوق الأعناق الضالَّة الظالمة، حتى نالته سيوفهم فهوى كالنجم، ينادي: يا عمَّاه..!!

ونَسِيَ "الحسين" ما حوله من هول، وانطلق كالصَّقر صوْبَ قاتِل ابن أخيه، حيث شَدَّ الليث وضربه بسيفه، فبتَّر يدَه الشقيَّة ثم طرحه أرضًا، حيث داسته خيل جيش ابن زياد، فهلك تحت حوافرها..

وانثنى "البطل" نحو ابن أخيه يَضُمُّه، ويشمُّه، ويتملَّى في جسده المُثْخَن، رَوْنَق، الزهور..!!

ولأول مرة سالت عبرات الأسد، وقال يخاطب الجثمان المسَجَّى بالمجد.

"عزيزٌ والله على عمِّك أن تدعوه فلا يُجيبُك.. أو يُجيبك فلا ينفعك في يومٍ، كَثُرَ واتِرُه.. وقَلَّ ناصِرُه.."!!

ثم حمله بين ذراعيه، إلى حيث أرقده بجوار ابنه علي، ثم عاد لِهولِ المعركة من جديد..!!

لك الله، أبا عبد الله!!

وهل اختارتك المقادير لهذا العبء الذي يُدعدغ الحب، إلا وأنت له كُفءٌ وبه جدير؟؟

ألا صبراً آل محمد. فهذا دوركم في الحياة، وحظكم من الدنيا يا سادة الآخرة، ويا مُلوك الجنّة..!!

راح الأبرار يسقطون في الحومة أبطالا.. و"الحسين" يصول هنا. ويُقاتل هناك. ودمُه الزكيّ يتفجر من فمه الذي اخترمه سهم وهو يحاول أن يأخذ جرعة ماء..!!

ووقف وحيداً أمام أعدائه..

وحيداً.. فقد رحل الأهل جميعًا، بعد رحيل الأصحاب..

كلهم عانقوا الشّهادة في سبيل الحق.

وأحاط به القتلة الذين سُمِّروا في أماكنهم، رائغةً أبصارهم.. واجفةً قلوبهم.

لقد كانوا - على كثرة ما اقترفوا من جريمة وسفكوا من دم - يهولُهم دَمُ "الحسين" فيتفادى كل منهم وزر الإجهاز على حياته.

وهُنا انبعث أشقاها "شمر بن ذي الجون" فصرخ فيهم؛ ليختطفوا رأس البطل.. فاقتربوا منه.. لكنه رغم جراحه ووحدته ينقضّ عليهم بسيفه.. ويخرج من الفسطاط غلام صغير، هو "عبد الله بن الحسن".

فيلمحُ قاتلا يُوجّه سيفه نحو عمه، فيصيح في براءة الأطفال "يا ابن الخبيثة أتقتل عمي".!

فيناله ابن الخبيثة بسيفه الجبان، فيسقط على الأرض دون أن تصيب الضربة منه مقتلا، ويسارع إليه عمه فيحمله إلى مكانه مع عمته السيدة زينب التي جلست تستقبل الصحابا، وتبصر المصاير، في

تفويض لله، ورضًا بقضائه!!

يواجه البطل أعداءه في جولة أخيره، فتقع ضربة سيف عسى رأسه الشريف فتدميه. فيشدّه بعصابة، ويحمل سيفه و لدم ينزف من كل جسمه.

والمحرمون يضربون. ويضربون. بيد أنهم لا يزالوان يرهبون دمه، ويتجنبون مقاتله!!

ومرة أخرى، تحرج "السيدة زينب" من خدرها. فترى أخاها وحيداً بين الوحوش، فتتقدم إلى حيث يسمعها "عمر بن سعد" قائد جيش ابن زياد، وتصيح به:

"يا عمر..

أيُقتَلُ أبو عبد الله وأنت تنظر"؟؟!

فيُطرقُ "ابن سعد" خزيًا وندامَة، ويصرف وجهه عنها وقد تفجّرت عيناه بالدموع.. لكنه لا يستطيع أن يتسلح من الموقف الذميم الذى ورّطهُ فيه هواه..

ويضرع "البطل" إلى أخته كي تعود إلى مكانها، ثم يصيح في القتَلة:

"أعلى قتلي تجتمعون؟ .

إني لأرجو الله أن يُكرمني بهوانكم، ثم ينتقم لي من حيث لا تشعرون"

ويطير صواب شمر بن ذي الجوشن، فينادي فرسانه من جديد ويأمرهم أن يقفوا من وراء مُشاتِه ورُماته، ليمنعوهم عن الكروض

إلى وراء.

ثم يصرخ في الرمة، مُتوعِّداً إياهم المصير، عندما يرجعون لابن زياد، ويهتاج كالمسعور طالبًا رأس البطل..

ويتقدم من "الحسين" واحد فيضربه بسيفه الأثيم على معصم يُسراه فتطير كفه، ثم يتقدم ثانٍ فيضربه بسيفه الظلوم على عاتقه، فيقع على الأرض.. ويحسبون أنه انتهى، فيصرفون عنه، لكنهم يُفاجأون به ينهض من جديد متوكئًا على سيفه، فيسارع إليه الآخرون موجهين إليه الضربة الأخيرة..!!

ويتقدم شمر بن ذي الجوشن، رجس البشرية كلها، فيجزّ رأس البطل.. ثم يحتفظ به ليحمله هدية إلى ابن زياد، ويزيد.

تمامًا، كما قُدم من قبل رأس "يحيى بن زكريا" عليه السلام، هديه لِبَغيٍّ من بغايا بني إسرائيل..!!

* * *

كان النهار قد لفظ آخر أنفاسه..

ومالت الشمس للغروب، مُخلِّفة وراءها شَفقًا عجيبًا في حمرته الزاهية، ووهَجه المتألِّق..!!

ولقد امتد على طول الأفق، وكأنه بساط وُضع ومُهِّد لِيَعْرج عليه إلى جنان الله أرواح الشهداء..!!

وعلى غير عادة الطقس والمناخ في ذلك الحين وفي تلك الأرض، دوَّت طلقات قوية صادعة كأصوات الرعود.

ولقد حسِبها المحرومون نذيرًا لهم.. ولكنْ لا، فهم أهونُ على الله من ذلك..

إنما هي السماء، كانت تطلق مَدافعها تحيَّة..!!

تحيَّة إجلال، للمهمة التي أنجزها الشهداء !!

وتحيَّة استقبال للأرواح التي كانت قد بدأت رحلة خلودها.. حيث تتلقَّى من يمين الرحمن ما أعدَّه لها من مثوبةٍ، ونعيم، وعَطاء !!

الفصل السابع

# الحصـــــــــــاد والدرس

... وانتهى كل شيء، ليبدأ كل شيء!!

انتهى اليوم الرهيب بآلامه وأمجاده.. ليبدأ من حديد بدروسه وبحصاده!!

ولقد ألف المؤرخون والكتّاب أن يتمثّلوا حصاد كربلاء، فيما أصاب فيه "الحسين" بعد حيص، من قتل وتدمير.. ثم فيما شاده المطلون بثأره من إمبراطوريات ودُوَل سادت الأرض وعمرتها قرونًا طِوالا.

أما نحن، فلنا وجهةُ نظر تختلف تمامًا..

فصحيح أن جميع الذين اشتركوا في قتله وقتاله، لفوا حتفهم على أبشع الصُّور وأشدها مذلّه وهوانًا.. كلهم، من ابن زياد، إلى شمر بن ذي الجوشن، إلى آخر واحد من الذين تحمّسوا للباطل، ووقفوا من ابن بنت الرسول ﷺ موقف التحدي والعدوان.

ومن عجبٍ أن التاريخ تتبّع مصارعهم، فإذا هم جميعًا يُقتلون قاتِلين هاربين..!!

ليس فيهم من مات ميتة رجل..

وكأنما كانت هذه أولى بشائر دعوة "الحسين" عليهم حين صاح

فيهم، وهو صامد وحده وسط سيوفهم ورماحهم قائلا :

إني لأرجوا الله أن يكرمني بهوانكم"..!!

كلهم قتلوا ودست جيادهم بالأقدام.. ما عدا يزيد.. فقد ضنّ عليه القدر بأن يذهب قتيل ثورة أو مقاومة؛ إذ أن ذلك كان سيضعه إلى حدّ ما، في الكفّة المقابلة للحسين عليه السلام.

كان الناس سيتحدثون: أن داعية الحق قُتل استشهاداً..

وأن ملك بني أمية قُتل عقوبةً، وقصاصًا . وهذه مقابلة قد تجعل منه على صورة ما، نداً أو كُفؤًا.. الأمر الذي صمّم القدر على حرمانه منه، فتركه يعيش أربع سنوات تعيسًا مُفزّعًا . ثم يموت في يأس وهوان، ونسيان..!!

* * *

نقول: صحيح أن قتلة "الحسين" لقوا جميعًا شرّ مصرع وأسوأ نهاية لكن ذلك لا يدخل في حسابنا بحال، ونحن نتتبع لحصاد العظيم ليوم "كربلاء"..

فليس لمقتل أولئك الأشقياء شأن يرتفع إلى مستوى ذلك الحصاد.. ولا يُكفّرُ عن دماء الرجال، بدماء الأنذال!!

كذلك لا يدخل في حسابنا لحصاد كربلاء، تلك الذئب الهائلة الحافلة التي شادها المطالبون بثأر البطل من عباسيين، وفاطميين، وعَلويين.. فإن تلك الدنيا التي شادوها بكل إمبراطورياتها، ودُولها وسُلطانها لا ترتفع إلى مُستوى الجوهر النضير لتضحية "الحسين" وحياته، وثباته..

وبالتالي، لا نستطيع أن نعتبرها مَثوبةً لتلك التضحيات وذلك

الثبات.

إن حصاد تضحيته وتضحيه رفاقه، ليُجاور ذلك كله إلى غايات أبعد، وأمجد، وأسمى..

وإن الدرس الذى يُلقيه يوم كربلاء بآلامه، وبطولاته - بمأساته، وعظمته، لتتفوّق على نظرائه فى قوة النور الباهر الذى أضاء به ضمير الحياة..

والآن، فإن علينا أن نتتبع مواطن العظمة والعبرة فى ذلك الحصاد.

* * *

وأول ما يلقانا فى هذا السبيل، هو أن جدوّة الحق والصمود التى أضاءها الحسين وأصحابه بدمائهم، لم تنطفئ ولم يَخْبُ نورها باستشهاده بل ازدادت ألقًا واندلاعًا على نحو يبهر الألباب..!!

وتمثّل، وأبهى ما تمثل فى أخته العظيمة "زينب"، وفى ابنه "علىّ" وهو غير "علىّ" الأكبر الذى استُشهد مع أبيه

لقد توقعت الدنيا أن تحنى الكارثة جبهة من بقى من آل بيت الحسين..

ولكن الطاهرة البتول "زينب بنت علىّ" وحفيدة الرسول ﷺ، سرعان ما ردّت للدنيا صوابها، حين أرتْها من عظمة هذا البيت كل عجيب.

لقد أخذ - عمر بن سعد - قائد جيش ابن زياد.. أخذ معه إلى الكوفة أهل بيت البطل الشهيد من نساء وأخوات، وأطفال..

وأراد أن تكون له فضيلةً وسط يومه الكئيب المظلم فى كربلاء فحافظ على أهل بيت البطل، وأكرمهم، وصانهم من كل سوء

وتوقع ابن زياد قبل أن يواجه آل بيت الحسين، أنه سيلقى انكساراً وضياعًا يستدرّان عطف قلبه الحنان.

لكن "أخت الحسين"، البطلة.. أحبت البطل.. وبيت البطل.. علّمته - إن كان لمثله أن يتعلّم - أنّ الهزيمة التي يتفجّع لها الناس ويستكينون، إنما هي هزيمة الروح وما كان ولا يكون لدعاة الحق وحملة رايته أن تهزم أرواحهم أبدًا ولا أن تحنى جباههم أبدًا..!!

ولقد لقنته هذا الدرس حين دخل عليه ومعها أهل بيت أخيها الشهيد، فسأل: مَن هذه..؟

فلم تجبه. ثم كرّر سؤاله مرتين وثلاثًا، وهي لا تجيبه، حتى أجابته إحدى خادماتها قائلة:

"هذه زينب، ابنة فاطمة، بنت رسول الله ﷺ".

فقال ابن زياد، مُدارِيًا حزنه الذي أثاره به احتقار "السيدة زينب" إياه..

قال البائس التعس. الحمد لله الذي فضحكم، وقتلكم.

وهنا مزّقت البتول صمتها بزئيرها العالي.

".. بل الحمدُ لله الذي أكرمنا بنبيّه، وطهّرنا من الرِّجْس تطهيرًا.

وإنما يفضح الله الفاسق، ويُكذّب الفاجر، وهو غيرنا، يا ابن زياد"!!

واستمرّ ابن زياد في مُداراة خزيه أمام الناس، فعاد يسأل البطلة.

كيف رأيت صُنْع الله بأهل بيتك..؟؟

فأجابته في عزّة إيمانها وتُقاها.

"كُتب عليهم القتل، فبرزوا إلى مضاجعهم. وسيجمع الله بينهم.

وبينك، فتختصمون عنده يوم القيامة"..!!

ورأى الجبان أنه أمام بطلة صعبة المراس، فراح يُجبل بصره فى بقية آل البيت حتى وقع على علام مريض ظنّ ابن زياد أنه فرصة ليدير معه حديثه المتوقّح محاولا إظهار صَلَفِه وغروره.

كان هذا العلام "على بن الحسين الأصغر" الذى صار فيما بعد إمامًا عظيمًا عُرف باسم "على زين العابدين"

سأله ابن زياد: مَن أنت..؟؟

فأجابه الشَّبل الكريم:

- عَلىّ بن الحسين..

قال ابن زياد: ألم يقتل الله علىّ بن الحسين؟؟

فأجابه فى أناة:

- كان لى أخ أكبر منى يُسمّى "عليًا" قتله رجالك..

قال ابن زياد فى جهالة وفجاجة: بل قتله الله.

فأجابه "علىّ":

"الله يتوفّى الأنفسَ حين موتها.. وما كان لنفسٍ أن تموت إلا بإذن الله"..!!

ودارت الأرض بابن زياد، بعد أن لفحته إجابة العلام الرجل. فنادى أحد جلاّديه: خذ هذا العلام واضرب عنقه.

وتقدم الجلاّد القاسى، فاعترضت السيدة العظيمة "زينب" طريقه، وضمّت ابن أخيها بين ذراعيها وصاحت بابن زياد: "إذن فاقتلنى معه"..

هناك انخذل الطاغية، ولم ينل الغلام بسوء

وبمثل مجيئها هذه لابن زياد، كانت مجابهتها ليزيد حين أخذ الركبُ إليه بالشام، تسقه رءوس الشهداء وفي مقدمتهم رأس البطل العظيم..!!

هناك وقفت تحاكمه أمام الحشد الذي جمعه ليظهر أمامه جبروته الكاذب وطغيانه الرخيص.

وقفت تقول له بملء فمها الصادق:

"إنك أمير مُسلط، تشتم ظالمًا.. وتقهر بسلطانك. أظننت يا يزيد أن بك هوانًا على الله، وأنّ بك عليه كرامة، فشمخت بأنفك حين رأيت الدنيا مستوثقة لك..؟

ألا إنّ الله إنّ أمهلك؛ فلأنه يقول:

﴿ولا يحْسبنّ الذين كفروا أنّما نُملي لهم خيرٌ لأنفسهم، إنما نُملي لهم ليزدادوا إثمًا. ولهم عذاب مُهين﴾

لترِدنّ على الله عدًا يا يزيد، وأنت تودّ لو كنت أيكمَ أعمى..

ولتحدثّنا عليك معرمٌ، حين لا تجد إلا ما قدمت يداك، تستصرخ ابن مرجانة.. ويستصرخ بك!!

ولتعلمن يوم يحكم الله بيننا، أيُّنا شرّ مكانًا وأضعف جندًا" !!

وكما صنع ابن زياد من قبل، صنع يزيد نفس الصَّنيع، فراح يلوذ من قوارع السيدة زينب" بتوجيه حديثه إلى العلام المريض..!

قال له: لقد قطع أبوك رَحِمي، وجهل حقي، ونازعني سلطاني، فصنع الله به ما رأيت.

فما زاد العلام الرجُل على أن تلا الآية الكريمة:

﴿ ما أصاب من مُصيبه فى الأرض ولا فى أنفسكم إلاّ فى كِتاب من قبل أن نبرأها، إن ذلك على الله يسير.. ﴾

﴿ لكيلا تأسَوْا على ما فاتكُم، ولا تفرحوا بما آتاكم. والله لا يحبّ كل مختال فخور﴾..!!

رجعت كلمات "زينب" الحاره وأنفاسها الساخنة، تهبُ جَذوة أحيها الشهيد مزيداً من التوهّج والألاء. فإذ الناس أفراداً وجماعات يرفعون جباههم جميعًا متحدّين ذلك النصر الرخيص الذى أحرزه يزيد وابن زياد..

فيقف الصحابى الجليل "يزيد بن أرقم" رغم كُهولة سِنّه ووهن جسمه، يصرخ فى أهل الكوفة:

يا معشر العرب الذين صِرتم عبيداً.. أتقتلون ابن فاطمة وتؤمّرون ابن مرجانة"..؟؟!!

ويقف "عبد الله بن جعفر الأزدى" لا يمنعه ذهاب بصره، وضعف شيخوخته، فيصيح بابن زياد أمام الملأ من الناس

"يا ابن مرجانة.. أتقتل أبناء النبيين، ثم تقوم على المنبر مقام الصدّيقين !!

ألا إن الكذاب، لهو أبوك. والذى ولاّك وأبوه". !!

وتنهض فى الكوفة كتائب "التوّابين" مُقْسمة أن تهب حياتها ثأراً "الحسين" ..

وتشتعل الثورة عارمة فى مكة، وفى المدينه حيث يُجرّد لها - يزيد - من جنده وقواده من ينزلون بالحرمَيْن المقدسين من الدمار والقتل

والإفك ما يحجز الشيطان من اقترافه.

ولكن الجذوة المباركة لا تخبو، حتى بموت بحسرته يزيد، ويخلفه ابنه "معاوية الثاني".. وهنا يُوجِّه القدر الحكيم أذكى ضرباته، فيقف ابن يزيد نفسه ليحمل شعلة الحسين، ويرد الجذوة صِرامًا، حين يجمع الناس لوم مشهود، ثم يُعلن فيهم - كما سلفنا من قبل - أن جدَّه وأباه اغتصبا الحق من أهله، وأنه يبرأ إلى الله مما جنتْ أيديهما.. وأنه نزَّه نفسه وينقواه عن أن يجلس على العرش الملوث بالجريمة..!!

ثم يعلن عليهم اعتزاله منصبه.. ويعتكف في بيته حتى يأتيه الموت فيلقى الله تقيًا، نقيًا، سعيدًا..!!

* * *

ويلقانا من حصاد كربلاء ودروسها العظيمة، جلالُ الإيمان وسلطانه القاهر..

فالحسين رضي الله عنه حين خرج إلى الكوفة لم يكن طالبًا دنيا ولا جاه.. إنما كان مستجيبًا لسلطان الإيمان الذي لا يُعصى ولا يُعلب.

ولقد رأى الإسلام بكل قِيَمه العالية وأمجاده العالية، يتعرض لمحنة قاسية بغرضها عليه بيت أبي سفيان

ورأى حطيئة الصُّمْت والسُّكوت تجتاح الناس رغْبةً أحيانًا، ورَهْبةً أحيانا . كانت بيعة يزيد دعما لسلطان الجاهلية على حساب الدين ودعما لسلطان القبيلة والأسرة على حساب الأمة..

وهكذا صارت مقاومتها دعْمًا لسلطان الدين والأمة معًا.

ولئن قام "الحسين" دعم هذا السلطان في النظام العام عن طريق

الخلافة، التي لم يكن له من أمرها شيء، فإنه لم ينحلّ عن واجب دعْمه في الضمير، عن طريق التضحية والصمود والفداء

وهكذا.. وفي سبيل إيمانه الوثيق والعريق ضحّى البطل الشهيد براحته، ثم بحياته.. وضحى معه أهله الأقربون، وصحبه الأكرمون.

ولقد يبدو لبعض الذين يفكرون في عجلة، أن "الإمام الحسين" ومن قبله والده "الإمام علي" كان بإيمانهم، وبما يشدان للحياة وللحُكم من ورع وتقوى يمثلان جُموداً لم يعد يطيقه الحياة بعد التطور البعيد الذي حققه الإسلام وانفعل به.

فالحق أنهما على العكس تماماً، كانا يُمثلان رُوح التقدّم وضميره.

بينما كان الآخرون من بني أمية يتحويلهم الدين إلى مزرعة أموية.. وبتحويلهم الخلافة إلى مُلكٍ يحكمونه ويتوارثونه، وبتحويلهم السلطة إلى سوط.. وبإشاعتهم النزعة القبلية بعد أن أدانها الإسلام في وحدته الصُلبة. كانوا بذلك كله يمثلون الرجعية المتكسة إلى عادات الجاهلية وتقاليدها.

لقد كانت تُضيء إيمان الحسين وتُسْجيشه دوماً، تلك الكلمات الصادقة التي قالها جَدّه، يعظم رسول الله ﷺ:

"هلاكُ أمتي على أيدي أُغَيْلِمَة من قريش".

وها قد جاء زمان الأغيلمة مُمَثّلاً ومُمَثّلاً في يزيد، وابن زياد، وما حولهما من بطانة الإثم والسوء..!!

وهناك حقيقة كان يدركها "الحسين" تماماً، ويدركها أبوه "الإمام" من قبله - هي أن بلاط معاوية وجيش الشام نفسه قد أفسحا

مكانًا رحبًا وعريضًا لكثيرين من الموتورين الذين تظاهروا بالإسلام ليدسّوا بين صفوفه مخرّبين ومدمّرين.

فالإيمان الذي حمل "الحسين" لواءه، وذهب شهيده كان لهذا كله، وبهذا كله، إيمانٌ مستنيرًا وواعيًا ورشيدًا

كذلك نواجه من حصاد كربلاء ودروسها، ذلك الدرس العظيم عن عظمة التضحية، وقداسة الحق.. فالقدر الحكيم، يرتفع بالتضحية في "كربلاء" إلى أعلى مستوياتها المرموقة، ويجعل منها ومن الحق "قيمة مطلقة" تُحقق ذاتها داخل ضميرها أولاً. ثم بعكس جلالها وسموها على الزمان والمكان بعد ذلك..

إنه يقصيها عن كل شيء عداها، حتى عن النصر ذاته..

وهكذا رأينا اثنين وسبعين مقاتلاً يصمدون لأربعة آلاف فارس يومًا بأكمله ثم يستشهدون جميعًا بعد أن يُنزلوا بعدوّهم خسائر فادحة تمثّلت في زيادة أعداد قتلاه عن عدد أولئك المستشهدين.

كأنما أراد القدر أن يقول لنا: إن الدرس الذي أريد إلقاءه اليوم، ومن فوق منصّة كربلاء الشاهقة، لا يتمثل في قدرة القلة المؤمنة على إحراز النصر على الكثرة الساحقة، فطالما ألقتْ دروسًا من هذا الطراز.

إنما درس اليوم عن عظمة التضحية وقداسة الحق. درس اليوم فحواه أن التضحية قيمةٌ بذاتها، وأن الحق قيمة بذاته.

وهما لا يستمدان جدارتهما ومكانتهما مما يحرزان من نصر أو يكتسبان من مَغْنم وسلطة.

فالانتصارات والمغانم يظفر بها الباطل أحيانًا، ويحققهما

الإذعان أحيانًا.

وإذن فالصفة المميزة للتضحية، أنها التضحية وحسب.. والصفة المميزة للحق، أنه الحق وكفى..

والمثوبة العظمى التي ينفرد بها أبطال التضحية وأبناء الحق، هي انتماؤهم العظيم للتضحية وللحق..

أجل.. هذا هو الدرس الجليل الذي كان القدر يلقيه على الدنيا في يوم كربلاء، متخذاً من حركة القتال وسير المعركة وسائل إيضاح..!!

فهو يدعُ الآلاف من فرسان ابن زياد يترنحون تحت ضربات "اثنين وسبعين" لا غير من أنصار "الحسين" وأبناء الحق؛ ليكشف - أعني القدر - عن قدرته على إبادة ذلك الجيش لو أراد لكنه لا يريد؛ لأنه يُعِدّ هذه المعركة وذلك القتال لمغزىً آخر يؤكِّد شرف التضحية وقداسة الحق مُستغنيَيْن بذاتهما عن كل شيء حتى عن النصر والنجاح!!

* * *

ولقد أبرزت بطولات كربلاء شرف التضحية على نحو باهرٍ وجليل، حتى لنكاد نحسب أن الأقدار إنما أرادت ذلك اليوم بكل أهواله وتضحياته لتؤكد شرف التضحية في وعي البشرية كلها، ولتضيء بمغزاه ضمير الحياة.

من أجل ذلك، اختارت لها في يوم كربلاء، نماذج رفيعة، بالغة الرِّفعة. وقضية عادلة، بالغة العدالة.. ونضالاً باسلاً، بالغ البسالة..

إذن هي شرف الإنسان وشرف الحياة.

وما دامت التضحية شرفًا، فيجب أن نصرف النظر عن الشكل الذي يفرضه عليها الاضطهاد والبغي. فالتضحية ليست حفلاً ساهرًا. وسواء على البطل أن يستشهد وجسده سليم.. أو يقضي، وجسده ممزق. أن يبقى رأسه مكانه من الجسد، أو يُفصل الرأس ويُمثل بالجسد!!

كل ذلك، وأكثر من ذلك يُعطّيه شرف التضحية، ويُحوّل أساه إلى مَجد.. وفواجعَه إلى بطولات!!

ومن شاء فلينظر، فهؤلاء نفرٌ من أكرم الخلق، وأنقى الناس، يمزّق أجسادهم بسيوف الباغين، ثم تحتزّ رءوسهم - اثنان وسبعون رأسا وتغرس في أسنّة الرماح..!!

فهل انتقص ذلك مثقال ذرّة من شرف التضحية وعظمتها ؟

أبدًا.. بل زادها تألّقًا وشرفًا..

إن الأجساد بمجرد إلقائها النفس الأخير يزايلها الإحساس بالألم. ثم تنال الأرواح مكانها العالي عند الله بقدر بلائها وتضحياتها، كما تنال مكانها العالي في ضمير التاريخ بقدر بذلها وعطائها.

ومن ثمّ فالناس يخطئون عندما يقفون أمام شكل التضحية وما يصاحبها من ألم وفاجعة، ثم لا يجاوزون هذا الشكل إلى جوهر التضحية، حيث العظمة والجلال..!!

ولقد أدرك هذه الحقيقة، وعبّر عنها في أصالة عظيمة، بطل الإسلام "خالد بن الوليد" حين تمثّل مأساة حياته في موته على فراشه، محرومًا من شرف القتل على أرض المعارك والنضال. فقال قولته المأثورة:

"لقد شهدتُ كذا، وكذا، رحفً وما فى جسدى موضع إلا وفيه ضربةُ سيف، أو طعنه رمح، أو رمية سهم.. ثم هأنذا أموت على فراشى حَتْفَ أنفى، كما يموت البعير، فلا نامت أعينُ الجُبناء" .!!

* * *

وفى واقعة كربلاء هذه، يتألق ذلك المعزى تألق النهار.

فإذا كانت فى شكلها الخارجى تبعث الأسى والحزن، فإنها فى جوهرها العظيم تستجيشُ كل ما فى النفس البشرية من إعجاب وإجلال.

إنها تبدو، وكأنها مهرجان للحق بلغ الروعة!!

وتبدو، وكأنها عيد للتضحية بدر المثال!!

إن المسلمين يحتفلون كل عام مرة بعيد الأضحى، ويسمونه "العيد الأكبر". فماذا كانت مناسبة هذا العيد فى التاريخ. ؟ كانت مناسبته التضحية ولا شيء سواها..

فحينما الرحمن "إبراهيم" أراد القدر أن يلفِّت ليشرية عن طريقه درسًا ليس كمثله درس فى تقديس مشيئة الله وتنفيذ بنائه وأمره، فدعاه أن يذبح ولده فارغ من فوره وشحذ سكينه وتَلَّ ولده للجبين وفى اللحظة الباهرة ملأ الوحى روعه وفؤاده:

﴿يا إبراهيم، قد صدَّقتَ الرؤيا.. إنا كذلك نجزى المحسنين﴾ !!

فهل اتخذ الإسلام من تلك المناسبة عيدًا، لأن الله افتدى "إسماعيل" بذبح عظيم..؟!

كلا، فلقد كان سيحتفل بها أيضًا لو انتهى الأمر إلى أن يكون "إسماعيل" الذبيح والقربان..

ذلك أن الإسلام يحتفي بمضمون الموقف وجوهره ـ التضحية بأعز شيء.. وفي سبيل ربّ كل شيء، وإله كل شيء..!!

ولقد وقف "الحسن" وأهله وأصحابه من أجل الحق موقفًا استحق بطولاته وتضحياته أن يكون للتضحية عيدًا ، أيّ عيد..!!

لقد رفضوا الباطل، واختاروا الحق..

ثم رفضوا الصُّمت، وآثروا المقاومة..

ثم رفضوا المساومة، وصمدوا مع إيمانهم..

ثم لما رأوا أنفسهم اثنين وسبعين، وسط أربعة آلاف فارس ورام، ولم يعد هناك أدنى ريب في أن الموت هو الذي ينتظرهم، واقتحموا الهوْل في مشهد مجيد، مُقرّرين بمحض اختيارهم وإرادتهم أن يمنحوا أمتهم، بل والبشرية كلها هذه القدرة الرائعة في التضحية.. وهذا العيد الممجّد للفداء..!!

وفي جلال المُفْتدين، وهيبة المتقين، راحوا يؤدون مهمتهم القدسية والعالية، حتى أنجزوها في نجاح عظيم..!!!

* * *

وإني لأكادُ أرى المعركة أمامي..

أرى وَقْع السيوف، وقذف الحراب.. أرى قطع الرقاب، وتمزيق الأجساد.. أرى وحشية المجرمين، وصمود المقدس

أرى ذلك كله، فلا يخدعني الشكل الفاجع عن الجوهر المجيد..!

ولا يصرفني مأساة الموت، عن عظمة الشهادة..!

ولا يشغلني مأتم الأرض، عن ابتهاج السماء..!!

أجلْ.. لكأني أرى السماء يومها مُنْتهية وهي ترى الحق يستعيد

قداسته في ذلك اليوم الرهيب، وتُثبت استعلاءه بهذا الصمود العجيب.!!

ثم، وهي ترى حكمة الله في اختياره تتحلّى..

فقديمًا، وعندما كان الرسول عليه السلام في بدء دعوته، قال كُفار قريش: أولم يجد الله غير ذلك البيت الهاشمي الفقير ليختار منه رسوله..؟؟

فأجابهم الوحي صادعًا رائعًا:

﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾.

أجَلْ، الله أعلم..

وها هو ذا عِلْمُه يتألق لبدبا، ولا كمثله تألق النهار.

فالرسول ﷺ لم يكن وحده بطل التضحيات، لأنه رسول.. بل ها هو عمه "حمزة" بطل الإسلام في "أحد" تمزقه السيوف والأحقاد، حتى تستقر كبده بين أنياب "هند" زوجة أبي سفيان.

وها هو ذا "جعفر" ابن عم الرسول ﷺ، بطل "مُؤتة" تحصد جسده سيوف الروم..

وها هو ذا "علي" ابن عم الرسول ﷺ.. بطل الإسلام في كل غزواته ومشاهده.. وبطله في وجه الوثنية الأموية التي أرادت أن تُحوِّله إلى مُلك عضوض - يمضي هو الآخر شهيد اغتيال أثيم..!!

وها هو ذا "الحسن" بطل السلام في الإسلام، تغتال عصابة الشيطان حياته بالسُّم، ويأخذ مكانه العالي بين الشهداء..!!

ثم ها هم أولاء، أبطالٌ كرام من نفس البيت الممجَّد والعظيم،

يصارعون أربعة آلاف مدجّجين بالجريمة والسلاح.. وليس معهم في ذلك اليوم الرهيب سوى خمسين ناصرًا أو مُقاتلا.

ويتقدم الاثنان والعشرون إلى التضحية والموت في سبيل مُعجز. ويعانقون الشهادة جميعًا، لا يبقى منهم سوى فتىً مريض..!!

أليس حقًا، أنّ الله أعلمُ حيث يجعل رسالته..؟؟

أليس حقًا ذلك يا رجال..؟!

فأي شيء في يومهم ذاك يخدعنا عن حقيقته؛ فنرى فيه وجه المأساة ولا نرى أمجاد البطولة..؟؟

ألأنهم قاتلوا ظِماء، وماتوا ظِماء، بينما أمواه الفرات تتفجّر أمواجها على بُعد خطوات..؟؟

وأيّ بأس، وهم بعد ساعات معدودات سيكون لهم كَوثر الرحمن كله.. يشربون منه عَلَلاً بعد نَهَل..؟!

الآن نكاد نعرف.. فلكأن هذا اليوم كان في حساب الوحي يوم نزل على الرسول ﷺ من ستين عامًا مضت مُعزيًا ومُبشرًا وقائلا:

﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾..!!

وأي شيء في يومهم ذاك يخدعنا عن حقيقته..؟؟ ألأنهم وحدهم في تلك الفلاة يقاتلون، وهناك في طول البلاد الإسلامية وعرضها ملايين البيوت أوى إليها أهلها، واسترخوا، بين نحت سقوفها..؟؟

وأيّ بأس؛ ما دام الله سبحانه قد ترك الملايين من تلك البيوت، ثم اختصّ هذا البيت وحده بأعظم ما في الدنيا من مجد وشَرف - شرف اصطفائهم لحمل رسالته، وإعلاء كلمته..!

وأيّ شيء في يومهم ذاك يخدعنا عن حقيقته..؟ ألأن المعركة

ستحلف أجسادهم فوق أرضها صرعى بسما المجرمون يتلمظون بنصر تعس رخيص..؟!

سلوا الله إذن عن حكمته فى تلك الصفوف العارمة من القدّيسين والأبرار الذين صرعهم الباطل عبر التاريخ من كل أمة، وعصر، ودين..!!

أم لأنَّ رأس "الحسين" سيُفصل عن جسده، ثم يحمل هديه لابن زياد، ويزيد..؟

سلوا الله إذن عن حكمته فى رأس "يحيى بن زكريا" نبيّه الكريم والعظيم حين فصل عن جسده، وقُدم هدية لِبغيٍّ من بغايا بنى إسرائيل..!!

أم لأننا سنرى الفتى المريض المُجهد - "على بن الحسين" الذى فقد فى المعركة أبيه، وإخوانه، وأعمامه يُقيَّد بالأغلال ويُطوَّف به فى شوارع الكوفة التعِسة..؟؟

ألا فلنحطِّم مفاهيمنا الجاهلية الضريرة، إذا أردنا أن نبصر جوهر الأشياء..

وإذا لم يكن بُدٌ لأقدامنا أن تبقى على الأرض، فلترتفع عنها عقولنا ورؤانا، إذا أردنا أن نتعرف إلى حكمة السماء..!

وإذا كانت وحشية المجرمين سترتنا فى كربلاء وجه الفاجعة التى تُذيب الصخر، وتصهر الحديد.. فإن شرف التضحيه وجلال الحق سيرياتنا فيها روعة المهرجان ومجد العيد..!!

* * *

وبحتتم حصاد كربلاء ودروسها بمثويه لتضحية.. فعلّمت دروسها

العظيمة أن لتضحيه مثوبة نفسها، وانها مادامت في سبيل الحق، فإن انتظار الأجر عليها جهل "بقيمها" إلا أن يكون هذا الأجر رضا الله، ورضوانه، وجنانه..

وليس معنى كون التضحيه مثوبه نفسها أنها تحرم أبطالها من مزاياها وعطاياها . وإنما معناه أنها ترفع تلك المزايا والعطاء إلى مستوىً من القداسه، والقدوة، والخلود، ترى تكن معالم الدنيا العاجلة وأمجادها الزائلة!!

إن مظاهر الرقيّ الشرى كثيرة، ولكنّ شرف الإنسان وجداره بالحياة لا يزالان، وسيظلان موطّن يقدره على التضحية النبيلة والجليلة من أجل الحق.

واللوحة التي رسمها تضحيات "الحسين" وأهله وصحبه بوّأت هذا الشرف وتلك الجداره أعلى المنازل والذرى..

إنهم لم يُقدموا على تضحية برجى من ورائها النصر. بل أقدموا على التضحية من أجل التضحية ذاتها..

وهكذا جعلوها وسيلة وغاية.

كما أكدوا معنى أنها مثوبة نفسها، وأنها قيمةٌ بذاتها!!

* * *

وبعد، فأكاد أسمعكم تقولون: إنك لم تحدثّنا عن أجساد الشهداء الأبطال، أين استقرت،..؟ ولا عن رأس "الحسين العظيم" أيّانَ مصيره، ومُرْساه..؟؟

أما أجسادهم الكريمة، فقد استقرت تحت الثرى الدامي لأرض كربلاء..!!

فعلى أثر رحيل جيش ابن زياد حفْ إلى مكان المعركه بمرّ من بنى أسد، كانوا ينزلون بالقرب منها، فدفنوا جثمان البطل العظيم.. وعند قدميه دفنوا جثمان ابنه الحسن "على بن الحسين"، ومن حولهما دفنوا أجساد بقية الشهداء الممجّدين.. وحيث وقع "العباس بن على" أخو "الإمام الحسين" شهيداً، دفنوا جثمانه الكريم

* * *

وأما رأس البطل، فقد راحت البقاع الإسلامية تتنافس ادّعاء شرف إيوائه، فيدّعى كل منها أن الرأس عندها تعطر أرضها، ويبارك حماها!!

لكن لا يُعرف على وجه اليقين أين هو..

وذلك أمر يتّسق مع حياة البطل ومصيره.!!

فرأس الحسين، بكل ما مثّله من صمود وعظمة وتضحيه لم يعُد ملكًا للحسين، ولا ملكًا لجسده.

لم يعُد ملكً لأرض.. بل ولا لدين دون دين.

لقد صار ملكًا لبشرية الراشدة فى كل زمان ومكان.

صار ملكًا للحق، يرفعه فى أوديته العامرة والثائرة لواءً وقدوة، ويملأ بسَاه إرادة الحياة عزمًا، وضميرها نورًا.. وكذلك صارت رءوس أهله وصحبه.. مشاعل فوق طريق الحق، و لشرف، والإيمان!!

# فهـــــرس الكتـــــــاب

# في هذا الكتاب


مقدمة ..... ٧
للنصحية خلفوا ..... ١١
النبوة لا الملك ..... ٢٧
السيد يفرض السلام ..... ٤٩
العصفة تزُر ..... ٦٩
البطل يتقدم ..... ٨٧
المأساة والعظمة ..... ١١٥
الحصاد والدرس ..... ١٤٩

# تعـــــــريف بالمؤلـــــــف

## خالد محمد خالد
## (المتوفى ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م)

كان مولده يوم الثلاثاء ٢٧ رمضان سنة ١٣٣٩ من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم الموافق ١٥ يونية سنة ١٩٢٠ ميلادية، في "العدوة" إحدى قرى محافظة الشرقية بمصر. والتحق في طفولته بكتاب القرية، فأمضى به بضع سنوات، حفظ في أثنائها قدراً من القرآن، وتعلم القراءة والكتابة..

ولما عقد والده - الشيخ محمد خالد - عزمه على أن يلحقه بالأزهر الشريف، حمله إلى القاهرة، وعهد به إلى ابنه الأكبر "الشيخ حسين" ليتولى تحفيظه القرآن كاملاً، وكان ذلك هو شرط الالتحاق بالأزهر في ذلك الوقت.

أتم حفظ القرآن كله في وقت قياسي وهو خمسة أشهر كما سيأتي ذلك مفصلاً في مذكراته "قصتي مع الحياة" - ثم التحق بالأزهر في سن مبكرة، وظل يدرس فيه على مشايخه الأعلام طيلة ستة عشر عاماً حتى تخرج فيه، ونال الشهادة العالية من كلية الشريعة سنة

١٣٦٤هـ - ١٩٤٥م، وكان آنذاك زوجًا وأبا لاثنين من أبنائه.

عمل بالتدريس بعد التخرج من الأزهر عدة سنوات حتى تركه نهائيًا سنة ١٩٥٤، حيث عين في وزارة الثقافة كمستشار للنشر، ثم ترك الوظائف نهائيًا بالخروج الاختياري على المعاش عام ١٩٧٦.

وبُذلت له عروض مغرية كثيرة لنيل وظائف قيادية في الدولة، سواء في رئاسة جمال عبد الناصر أو أنور السادات، فكان يعتذر عنها، ورفض عروضًا أخرى كثيرة لأسفار يسيل لها اللعاب، وآثر أن يبقى في حياته البسيطة المتواضعة التي يعبق عبيرها الزهد والقنوع(*).

وقد تقلبت حياته في أطوار متعددة، من حفظ مبكر ومتميز للقرآن الكريم، إلى طالب نابه بالأزهر الشريف، إلى شاب متعطش للمعرفة، تواق إلى أنواع الفنون والآداب والثقافات، إلى منغمس في السياسة مشغول بها، إلى خطيب بارع تهز خطبه السياسة أعواد المنابر، ثم إلى واعظ تعمر دروسه وخطبه القلوب بنشوة الإيمان، إلى عابد مشغول بالآخرة، وصوفي مشغول بربه، وهكذا. وقد شرح ذلك بالتفصيل في مذكراته التي كتبها وجعل عنوانها "قصتي مع الحياة".

وفي سن مبكرة التقى بشيخه المربي الكامل الشيخ محمود خطاب السبكي إمام أهل السنة ومجدد رواق الإسلام - كما وصفه هو - وكان أعجوبة من أعاجيب الزمان، وشاهدًا على ما يفيض الله على أوليائه وأحبابه من واسع فضله وعطائه (**).

---

(*) انظر "قصتي مع التصوف" لخالد محمد خالد نشر دار المعتصم للنشر والتوزيع بالقاهرة

(**) انظر قصتي مع التصوف.

وصفه بقوله: "إن وصفه لمن الأمور الصعبة، والحديث عنه بقدر ما هو شهي وندي.. يوقع الكاتب في حيرة.. وهكذا يكون شأننا مع أنبياء الله والمرسلين.. ومع أوليائه المقربين. فنحن ننشق عبيرهم الذي يضوع بهاء وعطرًا.. ونتقلب في نعماء ما آتاهم الله من نور وهدى وحكمة. بعد أن الاقتراب منهم يفرض علينا من التبعات مالا نطيق.. والحديث عنهم، وتفسير مواقفهم، أمر يعسر تناوله إلا على من يجعل الله عسره يسرًا"(*).

***

وكما كانت حياته في بواكيرها كالنهر الذي تجيش مياهه بالفيضان، وتتقلب في تدفق وعنفوان، فإنه كلما اقترب من البحر هدأت أمواجه، واطمأنت مسيرته، حتى إذا امتزج بماء البحر صار له هدوؤه وشموله واتساعه..

وجاءت مؤلفاته الرائدة كذلك؛ بدأت ثائرة متدفقة..وانتهت إلى الرسوخ واليقين.. وفي كلها كان مخلصًا، لا يبتغي بأي منها عرضًا من أعراض الدنيا. بل لقد جاءته الدنيا تعرض نفسها عليه من أوسع أبوابها، فأوصد دونها بابه ...

ومثال على ذلك أن جمال عبد الناصر ورفاقه في مجلس قيادة الثورة كانوا قد قرأوا كتبه قبل الثورة، وتحمسوا لها لدرجة أن عبد الناصر كان يشتري منها - من جيبه الخاص - مئات النسخ ويوزعها على زملائه الضباط (**)، ومع ذلك فإنه لمّا قامت الثورة لم يرد أن

---

(*) من مقدمة الكتاب "في صحبة الشيخ محمود خطاب إمام السنة وقطب الأنصار" للأستاذ توفيق أحمد حسن، دار المعتصم بالقاهرة

(**) انظر "قصتي مع الحياة" فصل: حوار مع عبد الناصر

يستفيد منها، وكانت فرصته في ذلك عظيمة، ولكنه بدلاً من ذلك وقف نداً للثورة موجهًا لها، مصالبًا حكومتها بتطبيق الديمقراطية، فكان صدور كتابه "الديمقراطية أبداً" بعد سنة أشهر فقط من قيام الثورة في ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢.

وظلت هذه مواقفه من الثورة ورجالها حتى توجت بموقفه الفريد في "اللجنة التحضيرية" سنة ١٩٦١، وفيها انتقد مواقف الثورة من قضايا الحرية والديمقراطية، وعارض ما أراد عبد الناصر القيام به من إجراءات تعسفية ضد من أسموهم - حينئذ - ببقايا الإقطاع، وأعداء الشعب. بعد أن نزعوا أموالهم عنوة وظلمًا، ونكسوا بهم بغير جريرة ارتكبوها، فصاروا بعد عز في ذل، وبعد غنى في فاقة وعوز، وبعد أمن في خوف، ولا يجدون من يدافع عنهم، أو ينتصر لهم.. فكان هو الصوت الوحيد الذي ارتفع في وجه الصمت والخوف، مدافعًا عن الحق، طالبا لهم - بدلاً من العزل السياسي - "العدل" السياسي، ولما أخذ التصويت في المجلس على من يعترض على إجراءات العزل السياسي، كانت يده هي الوحيدة التي ارتفعت في سماء القاعة التي ضمت - يومئذ - ثلاثمائة وستين عضوا[*].

***

منذ كتابه الأول "من هنا نبدأ" خرج خالد محمد خالد على الناس ككاتب فذ، وصاحب فكر، ومنافح عن قضايا الأمة.. وبذا تحدد موقعه كمصلح اجتماعي وزعيم فكري تعلقت به جماهير غفيرة من الناس، وأعجبت بكتبه وأفكاره، ليس في مصر وحدها، بل

---

[*] انظر "قصتي مع الحياة" فصل: حوار مع عبد الناصر

وخارجها أيضا..

وطبع "من هنا نبدأ" ست طبعات في سنتين اثنتين، وتُرجم في نفس السنة التي صدر فيها إلى الإنجليزية في أمريكا، وكتبت عنه عدة رسائل وأبحاث جامعية ومقالات في أنحاء متفرقة من أوربا وأمريكا..

ولكن فطرة المؤلف النقية، ونيته الصادقة جعلاه - فيما بعد - يقول إنه عندما رأى حفاوة أعداء الإسلام بالكتاب أدرك أنه أخطأ فيه.

وهنا نجلي واحدة من مواقفه التي امتلأت بها حياته، إذ ظل يفكر فيما دعي إليه فيه من فصل الدين عن الدولة ويقسه في ذهنه حتى أعلن على الملأ رجوعه عن هذا الرأي، فلم يخجل - وهو الكاتب الكبير - من أن يعلن أنه أخطأ.. وراح يصحح ذلك الخطأ بكل قوته.

فلم يترك وسيلة من وسائل إذاعة هذا التصحيح إلا أتاها من مقالات، أو تحقيقات صحفية أو إذاعية أو تلفزيونية.. ثم لم يكتف بهذا كله، فكتب كتابًا كاملاً أعلن فيه تصحيحه لرأيه الأول، وراح يدلل على أن الإسلام دين ودولة، بل إنه جعل شعار الكتاب هو: "الإسلام دين ودولة..

حق وقوة.

ثقافة وحضارة.

عبادة وسياسة.."

***

وقد خلف ـ رحمه الله ـ ثروة علمية كبيرة تربو على ثلاثين كتابا، غير المقالات والأحاديث الكثيرة التي لم تجمع بعد.. وقد نفع الله بأعماله تلك نفعا كبيرا، وتلقفها القراء في شوق، لأنها ـ ككل أعماله اتسمت بالإخلاص، وتدفقت بالعاطفة الصادقة الحياشة..

وأشهر مؤلفاته، وأكثرها انتشارا هي الإسلامبات التي جاءت فريدة في بابها من حيث الأسلوب، وطريقة الساول، وأشهرها على الإطلاق "رجال حول الرسول ﷺ" الذي تحدث فيه بافتدار عن سيرة ستين من أصحاب رسول الله ﷺ، و "حنفاء الرسول ﷺ" الذي ضم بين دفتيه خمسة كتب عن الخلفاء الراشدين:

١ـ "وجاء أبو بكر"
٢ـ "بين يدي عمر"
٣ـ "وداعًا عثمان"
٤ـ "في رحاب علي"
٥ـ "معجزة الإسلام عمر بن عبد العزيز"

وقد ترجمت هذه الكتب إلى لغات كثيرة في أنحاء عديدة من العالم.

ومن كتبه أيضًا: "أبناء الرسول في كربلاء" و "والموعد الله" و "لقاء مع الرسول ﷺ" و "كما تحدث الرسول ﷺ" و "كما تحدث القرآن" و "إنسانيات محمد ﷺ" و "عشرة أيام في حياة الرسول ﷺ" وغيرها..

أما كتبه السياسية والإنسانية والاجتماعية والفلسفية فهي عديدة كتب منها ثلاثة كتب في موضوع الديمقراطية وحدها، وهي:

"الديمقراطية أبدا" و "دفاع عن الديمقراطية" و "لو شهدت حوارهم لقلت". راجع قائمة المؤلفات في آخر الكتاب..

وكتب - أيضًا - مذكراته في كتاب "قصتي مع الحياة"، وقد نشرت لأول مرة في جريدة "المسلمون" السعودية و "المصور" المصرية في آن واحد، وبعد أن تمت طبعت في جزء واحد في مؤسسة أخبار اليوم، ثم طبعت طبعة جديدة بدار المقطم بالقاهرة.

وكان آخر كتبه "الإسلام ينادي البشر"، وقد أراد له أن يخرج في ثلاثة أجزاء:

الأول: "إلى هذا الرسول ﷺ"

الثاني: "إلى هذا الكتاب" (القرآن)

والثالث: "إلى هذا الدين"

ولكنه لم يتمكن إلا من كتابة الجزء الأول، ثم وافته المنية.

***

أما عن عادته في الكتابة، فإنه لم يكن يحس للكتابة - قط - إلا إذا استشعر الحاجة الملحة لذلك، وتكون الفكرة التي يريد الكتابة عنها قد نضجت، وطلبت الظهور، حينئذ يجلس في أي مكان، وفي أي ظروف ويبدأ في الكتابة دون أن يلتفت لما حوله أو ينشغل به.. وقد تمضي - أحيانا - من حياته سنوات دون أن يكتب فيها شيئًا لأنه لم يجد ما يهيج في نفسه الدافع للكتابة..

وقد اتسمت كتابته بأسلوب رشيق بديع، وقدرة فائقة على التعبير والغوص إلى جوهر الأشياء، ووصفها بيسر وروعة، واقتدار. وكان كثيرًا ما يُسأل عن السر في جمال أسلوبه فكان يقول:

"إن الأسلوب في الكتابة لا يصنعه شيء إلا رب العالمين"

وقد أورد الدكتور شاكر النابلسي في كتابه الذي كتبه عنه نموذجًا من كتابته، وجعله تحت عنوان "عزف لعوى"(*)، وهو العنوان الذي يصف رشاقة أسلوبه وجماله، وعبوذه إلى القلوب..

***

وكان - رحمه الله - طيب النفس، مستبشرًا في عامه أوقاته، تغلب عليه السكينة والتأمل..

وكان غاية في الكرم، غاية في التواضع وسل الأخلاق، بارًا بوالديه وصولاً للأرحام مراعيًا لحقوق الزمالة والجيران، ساعيا - إلى آخر أيامه - في قضاء حوائج الناس، لا يمل من كثرة قاصديه، ولا يضجر من إلحاح بعضهم عليه حتى في أوقات مرضه، وكان يقول: "تلك زكاة الجاه".

واتسمت حياته كلها بالزهد في المال والمنصب ومظاهر الجاه، وقد استفاض في وصف ذلك من عرفوه وكتبوا عنه (**) ومن ذلك أيضا مواقفه التي أظهرت ما كان عليه من شجاعة ومن مكارم الأخلاق منها موقفه من الأحوال المسلمين الذين كان قد عارضهم قبل الثورة، ولكنه بعدها، وبعد أن تكلبت بهم ومزقتهم كل ممزق، طلب منه مهاجمتهم ونقدهم فأبى ولم يخضع لتهديد ولا وعيد قائلاً: "لقد ناقشت الإخوان ونقدت فكرهم وسلوكهم يوم كان بعض قادة الثورة من مجاديبهم!! ويوم كانوا من القوة بمكان.. أما اليوم

---

(*) ثورة التراث، دراسة في فكر خالد محمد خالد للدكتور شاكر النابلسي.

(**) راجع "تصوف مع التصوف" ص٤٤ وما بعدها - ط القلم.

وهم في المعتقلات و لسجون بحب وطاه التعذيب، فقد أوصى سيدنا الرسول ﷺ ألا نجهز على جريح".

وقد نقل الشيخ يوسف القرضاوي تفاصيل هذا الموقف في مذكراته التي نشرها في جريده "آفاق عربيه" (لعدد رقم ٥٧٣). (*)

كان ـ رحمه الله ـ محبًا للخير، مسارعًا إليه، كأنه كان يصف كوامن الخير في نفسه عندما كتب هذه السطور من كتابه "لقاء مع الرسول ﷺ":

"فإذا سألتني ـ أيها القارىء ـ ما الخير؟ أجبتك من فوري. إنه الخير. إنه ذلك الذي يجعل الإنسان إنسانًا حتى القلب، ريان الضمير.. وذلك الذي يجعل منك ملاذا للآخرين، يأوون إليك كما يأوي المحرور إلى ظل شجرة، أو كما يأوي الظمآن إلى عين ثرة تفيض بالماء البارد النمير.

هو انعكاس إنسانيتك على الآخرين، وإضفاء فضائل نفسك البارة الكريمة على الحياة وعلى الأحياء.

وإن خير ما يصنعه المرء في حياته هو أن يسع حياته الناس رحمة وبرا، ومحبة وودا.

فكان محبا للناس، لجميع الناس، مستأنسا بهم، متوددا إليهم، متغافلا عن أخطائهم مسامحا مع من يسيئون إليه..

كان ـ باختصار ـ متخلقا بأخلاق الإسلام، وإن لم يحرص على أن يكسو نفسه بمظهره.. بل كان له مظهر الرجل العادي ـ كسائر الناس. أما سلوكه وأخلاقه فكانا يدلان على عمق إيمان ورسوخ

(*) راجع "كيف نتعامل مع القرآن" ص٤٤ وما بعدها . ط النهضة

يقين..

وكان يغزو ذلك إلى التصوف فيقول في مذكراته:

"ومرة أخرى أنحنى إجلالا للتصوف، فهو الذى سكب فى روحى كل ما روى ظمأها إلى الخير والسكينة والمرحمة والمعدلة، وكل ما بقى لى بعد مغادرتى إياه من قربات ومغانم ومناعم، ومن فضائل وقدرة وإصرار.. فإليه - أولا - يرجع الفضل بين كل الأسباب، وقبل كل الأسباب"

لقد كان - رحمه الله - ممن تشرب روح التصوف منذ يفاعته، ولم يكن تصوفه إلا فى قلبه، فلم ينتم إلى أى من طرقه، بل تلقاه مبكرا على يد شيخه السبكى رضى الله عنه (*)

وكان محبا لأهله أينما وجدوا مداوما على زيارة أضرحة أهل البيت، وأولياء الله الصالحين.

ومن أقواله المأثورة:

- "إنى لا أرفض إنسانا لأن فيه خطأ أو اثنين أو عشرة، وأرفض معه بقية فضائله، فقد توجد فيه فضيلة واحدة تزن صلاح مائة عابد".
- "إن الحب هو جوهر الحياة.. إن الحب يولد فى النفوس طاقة لا تعدلها طاقة أخرى فى الكون ولا تقابلها"
- "الله سبحانه لا يعيق المهاجرين إليه، والمسافرين إلى رضوانه، بل يجعل لهم الأرض مهدا، والسماء سبلا".
- "على رأس فضائل الحياة وشعار الدين تقف فضيلة الحب"

---

(*) راجع تعليق مع التصوف.

- "لابد للحب كي يصفو ويدوم أن يكون خالصا، صافيا، نقيا، وبكلمة واحدة: أن يكون لله رب العالمين".
- "كما ننام نموت.. وكما نستيقظ نبعث.. ومن كان في شك من الموت والبعث، فليعش إن استطاع بلا نوم وبلا استيقاظ".
- "علاقة العبد بربه تتطلب مراجعة مستمرة للتبعات التي تفرضها وللسلوك الذي نحمل به هذه التبعات".
- "إننا من طول ما ألفنا بعض الآيات القرآنية، وبعض الأحاديث النبوية، أصبحنا لا نهتز من أعماقنا للسر الباهر الذي تحمله، والحكمة الثاقبة التي تمنحها".
- "إن صحبتنا الصالحين الذين لم تجمعنا بهم خلطة مباشرة تكشف عن حقيقة أنفسنا ومالها من حظوظ الخير والفضيلة".
- "لا تجد مؤمنا إلا حييا، ولا منافقا إلا عديم الحياء".
- "الإسلام لم يأت ليعلمنا أخلاق الصوامع.. بل ليعلمنا أخلاق المدينة".
- "الكذب مفسدة مطلقة، لأنه سريع النمو، سريع الانتشار، وله ضراوة كضراوة الخمر أو أشد".
- "الرياء آفة تمحق الأعمال وتردها ترابا في تراب".
- "التواضع نعمة من الله يهبها لكبار النفوس".
- "الإيمان بالقدر لا يقول لك: نم وانتظر قدرك.. بل يقول: قم واكتشف قدرك".
- وسئل عن القومية العربية فأجاب: إني لا أعرف شيئا عن القومية العربية، ولكني أعرف أشياء عن الوحدة الإسلامية".

• وقال شعرا في عيد مولد النبي ﷺ:

يا عيد مولده كم ذا تواتينا تشدو فتبهجنا، تشجو فتبكينا
قل للرسول إذا ما جئت روضته أدرك شعوبك قد حار المداوونا

***

وفاته:

كان ـ رحمه الله ـ قد مرض مرضا طويلا، واشتد عليه في سنواته الأخيرة، ومع ذلك كان دائم القول: "لا راحة للمؤمن دون لقاء الله" ولم تكن فكرة الموت تزعجه، بل كان كالمنتظر له على شوق، وقد استعد له، وأوصى بما يريد..

وكان من وصيته أن يصلى عليه في الجامع الأزهر، معهده العلمي، ومرتع صباه وشبابه، وأن يدفن بقريته "العدوة" بجوار الآباء والأجداد والإخوان والأهل..

وجاءته الوفاة وهو في المستشفى يوم الخميس، ليلة الجمعة ٩ شوال سنة ١٤١٦هـ الموافق ٢٩ فبراير سنة ١٩٩٦م ـ عن عمر يناهز الستة والسبعين عاما.

اللهم إنى قد قلت فيه مبلغ علمى..
ولا يخلو كلامى من أثر حب الولد لوالده..
اللهم لا تكله إلى عمله..
واشمله برحمتك يا بر يا رحيم..
وصل اللهم على الحبيب الشفيع..
سيدنا محمد ..
وسلام على المرسلين..
والحمد لله رب العالمين..

محمد خالد ثابت